340

عبد الوهاب مطاوع

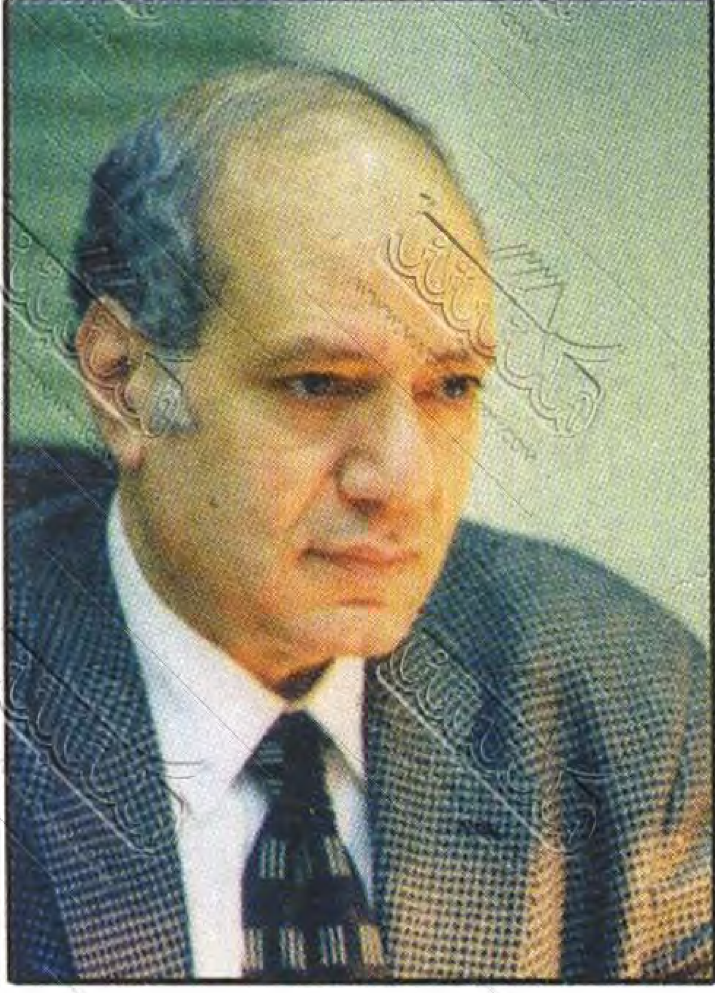
لا تنسَنِي



Monday
4/3/2012

لاتَنْسَنِى

الحياة .. تلك الساحرة الرائعة الهادرة الصامتة المشرقة المتجهمة الشاردة المفكرة الهادفة الهائمة.. هذه هى الحياة بكل متناقضاتها.. تتأرجح بين الأحداث والذكريات والنسيان.. يدور كل منها وراء الآخر.. تتواصل الأحداث فتتوالد الذكريات ثم يتعهدها النسيان ليبقى منها فقط مانحرص - نحن - على بقائه تحت شعار "لاتَنْسَنِى".. ومن هذه الرؤية الثلاثية، المتجمعة فى نقطة واحدة، تأتى قصص الكاتب المبدع "عبد الوهاب مطاوع"، رحمه الله، كأثر خالد على أستاذيته وريادته لهذا اللون من القصص الإنسانى.. الذى لايمكنك أن تحدد فى ثلاثية أخرى مقابلة.. أين الكاتب وأين البطل وأين المتلقى.. فقد صاروا جميعًا كلًا غير قابل للانفصام...



★عبد الوهاب مطاوع 1940-2004

★ شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

★ كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.

★ صدرت له مجموعات قصصية عديدة، منها: (أماكن فى القلب) ، (والحب فوق البلاط).

الدار المصرية اللبنانية


6 222006 312176

كتابنا القادم

روح الجهاد

وحقيقته في الإسلام

المؤلف: محمد فتح الله كولن

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

عبد الوهاب مطاوع

لا تَنْسَنِى

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

راجع محتويات حقيبة السفر للمرة الرابعة، وتأكد من وجود كل شيء بها فأغلقها، وطاف بأنحاء الشقة الصغيرة ليتأكد من إغلاق محبس الماء ورفع أكباس الكهرباء وإحكام إغلاق النوافذ والشرفة الوحيدة، فغرقت الشقة فى ظلام خفيف، ينذر بوحشة الـهجر والغياب. وجلس صامتًا بجوار التليفون كأنما يترقب اتصالاً ضروريًا قبل الرحيل، فمضى الوقت بطيئًا دون رنين. سمع طرقة خفيفة على الباب فاتـجه إليه، ووجد بواب العمارة أمامه يطلب الـحقيبة، وينبهه إلى تذمر سائق سيارة الأجرة من طول الانتظار. سلَّمه الـحقيبة واعدًا باللحاق به ثم أغلق الباب وعاد للشقة الـمظلمة. يتجول فى أرجائها كأنما يبرر لنفسه تأخره فى مغادرتـها برغبته فى التأكد من جديد من إغلاق الشرفة والنوافذ. وقف يلقى على شقته الصامتة نظراته الأخيرة وصدى صوت قديم يـتردد فى أذنيه.. مـجِّددًا كل الأحزان!

1

فى مثل هذا اليوم منذ عام واحد.. وفى مثل هذه اللحظات لم يتوقف جرس التليفون عن الرنين كل بضع دقائق حاملاً له صوتها "الغاضب" الحنون يسأله فى إشفاق: هل حقًا ستسافر بعد قليل؟ فيجيبه بما يمليه عليه الـموقف من كلمات ويضع السماعة ويواصل إعداد حقيبته، فيرن التليفون مرة أخرى ويتكرر التساؤل الحبيب!

أعد حقيبة السفر هذه المرة دون مقاطعة ولا رنين.. فأين ذهب الإشفاق الجميل؟

استسلم لخواطره لحظات فأفاق على طرقات الباب مرة أخرى، ووجد أمامه البواب من جديد يبلغه هذه المرة بتهديد سائق الأجرة بالانصراف إن لم ينزل إليه على الفور، فيرتبك للحظات ويطلب من البواب الانتظار، ويعود إلى داخل الشقة فيراجع للمرة الأخيرة نوافذها المغلقة، ويرقب التليفون الصامت فى قنوط للحظات أخرى، ثم يغادر الشقة ويغلق الباب بإحكام ويركب المصعد مع البواب.

وأمام سيارة الأجرة التى لم يخف سائقها نظرة التذمر البادية عليه، استدار إلى البواب وصافحه مودعًا، فحيَّاه الآخر بحرارة قائلاً له: ستوحشنا يا أستاذ!

ركب سيارة الأجرة وصدى عبارة البواب العفوية يتردد فى قلبه الحزين.

سيفتقدنى البواب الطيب.. فما بال "الآخرين" لا يفتقدونه ولا يهتزون لفراقه؟

تشاغل عن أفكاره بمراقبة الطريق، فتوقفت عيناه عند إشارة المرور أمام زوجين شابين، يسيران على الرصيف المجاور وذراع

كل منهما فى ذراع الآخر، والزوجة فى أيام حملها الأخيرة ترفل فى فستان واسع، وتستقر فى عينيها نظرة الاطمئنان والأمان.. فسأل نفسه: كم مرة تخيل نفسه فى نفس هذا المشهد الحبيب معها وذراعه فى ذراعها.. و"حملها" الجميل يتقدمها فى الطريق؟ قال لها إنه لن يقنع بأمومتها للطفلتين اللتين أنجبتهما فى زواجها الأول.. وأنه يتوق لطفل من صلبه يجمع بينهما للأبد فأحنت رأسها باسمة بغير اعتراض.

جمعت بينهما الأيام فى العمل.. كان شابًا ممتلئًا بالأمل فى الحياة والسعادة، وكانت هى زوجة شابة لا تخفى تعاستها على زملائها فى العمل، فلفتت نظره بجمالها الوديع وروحها الطيبة الودود مع الجميع.. وتساءل فى باطنه كيف تضن الحياة على من كانت فى جمالها ورقتها بالسعادة وراحة البال؟ اقتربت منه خلال زمالة العمل وأنست إليه واصطفته من بين الزملاء صديقًا مقربًا، تحكى له بإسهاب عن متاعبها مع زوجها الذى ارتبطت به خلال الدراسة الجامعية، وتزوجته عقب التخرج وأنجبت منه طفلتين، فإذا به يتكشف لها بعد أعوام قليلة من الزواج عن شخص آخر تفوح روائح خياناته المتعددة لها، ويعتدى عليها بالضرب بوحشية إذا واجهته بها، ويضغط عليها بقسوة لكى تنقل إليه ملكية الشقة التى اشتراها لها أبوها، وتتكرر مرات هجرها له بعد كل

"مذبحة" مماثلة بينهما ثم عودتـها إليه بعد حين حرصا على الطفلتين، فلا يطول الوقت حتى يتجدد الصراع مرة أخرى، وتعود لبيت أسرتـها مثخنة بالكدمات والإصابات!

عايش همومها ومتاعبها بقلب يحس تجاهها بالإشفاق والرثاء، وأدى لها بإخلاص كل ما تحتاج إليه من خدمات فى العمل وفى حياتها الشخصية، فلم يمض وقت طويل حتى سلم لنفسه بأنه غارق حتى الثمالة فى حبها، ويتمنى لو كان يستطيع أن ينقذها من تعاستها ويقضى ما بقى له من عمر إلى جوارها.. طالت فترات جلوسها معه فى العمل.. وبدا واضحًا للعيان أن يتعبد فى محرابها فى صمت وبلا أدنى أمل فيها، فتطايرت الهمسات عنهما ولامها الزملاء فى أحاديثهم لاستدراجها هذا الشاب الطيب للوقوع فى حبها أكثر مما لاموه هو لسلامة نيته ونقص تجربته. تحمَّل صابرًا نظرات الاستياء فى عيون الزملاء، ولم يغضب من أحد راجيًا فى أعماقه أن يقدروا له صمته وعجزه حتى عن مجاهرتها بحبه الذى لم يخف على أحد.

واشتدت معاناة زميلته مع زوجها.. وبعد صدام جديد وخيانة أخرى هجرت بيتها وعادت مع طفلتيها إلى بيت أسرتـها، وطلبت الطلاق بإصرار هذه الـمرة.. ورفض زوجها طلاقها وراح يلاحقها فى العمل وفى كل مكان ويتحرش بـها، فاحتمت بزميلها الـمحب..

وطلبت منه أن يلازمها فى رحلة الذهاب للعمل فى الصباح والعودة منه، ووقعت اشتباكات مؤسفة بينه وبين زوجها وصلت إلى تبادل الضرب والذهاب إلى أقسام الشرطة.. واشتد انتقاد الزملاء لزميلتهم، وترددت نصائحهم لزميلهم الشاب بالنجاة بنفسه من هذا العناء، فأبى التخلى عن حبيبته فى ضعفها، وأكد للجميع أنه سيقف إلى جوارها حتى النهاية، وبلغت أنباء مصادمات الشارع مسامع رئيسه فى العمل فاستدعاه ولفت نظره إلى مخالفة ما يجرى لأصول العمل، وطالبه بوضع حد "للعلاقة الشائنة" بينه وبين زميلته وإلا اضطر إلى نقله إلى موقع آخر، ففوجىء بمرؤوسه الشاب ينفجر باكيًا، وهو يؤكد له عجزه عن التخلى عن زميلته ولو انتهى به الأمر إلى الفصل من العمل، فبُهت رئيسه لانهياره المفاجئ أمامه، وأحس له ببعض الرثاء، ثم أنهى الموقف راجيًا منه الابتعاد بقدر الإمكان بهذه "المهازل" عن مكان العمل!

وتتطور الأحداث بينها وبين زوجها وبعد مشاكل عصيبة بينه وبينها، سلم الزوج أخيرًا برغبة زوجته فى الانفصال وطلَّقها، وترك طفلتيه فى رعايتها مقابل تنازلها عن كل حقوقها.

وتشجع هو بما حدث فصارحها للمرة الأولى بما يعلمه الجميع من حبه الآسر لها ورغبته فى الزواج منها.. وتوقع أن تتهلل لرغبته

الصريـحة فيها ففوجىء بـها تتردد.. ثم تتحدث عـن مـخاوفهـا مـن أن يؤدى زواجها منه إلى مكايدة زوجها السابق لـها ومطالبته بحضانة الطفلتين رغم عجزه عن رعايتهما ماديًا ونفسيًا.

ويغرق هو فى الـحيرة والألـم.. ويشتد به الألـم ذات يوم فيقاوم خجله، ويدخل إلى رئيسه راجيًا منه أن "يحدثها" ويقنعها بالزواج منه وهو الذى يحبها فى صمت وإخلاص منذ ثلاثة أعوام! ويتردد رئيسه فى رفض رجائه إشفاقًا عليه، ويستدعيها ليحدثها فى أمر هذا الشاب الذى اضطربت حياته بسببها.. وتعده بالتفكير فى الأمر بعد زوال المصاعب، ويطول انتظار الشاب فيجيئه الحل الموعود بأن يبذل كل جهده للحصول على شقة لا يقل مستواها عن شقة الزوجية السابقة لتكون عشًا جديدًا لهما، على أن تبقى الشقة الأولى للطفلتين فى المستقبل، ويحمل الوسطاء بينها وبين زوجها السابق موافقته على الحل بهذا الشرط وحده وإلا استرد الطفلتين.

ويقف هو عاجزًا أمام الحل المستحيل، وقد كان يظن أن فى شقته الصغيرة الكفاية إلى أن تتحسن الأحوال.. وتتمسك فتاته بشرطها ويساندها أبوها.. فلا يجد بعد التفكير الطويل وسيلة لتحقيق الأحلام سوى السعى للسفر إلى الخارج، ويكتب إلى شقيقه الذى يقيم بإحدى الدول العربية طالبًا إيـجاد فرصة عمل له معه. وتـجىء البُشرى بعد

شهور أخرى من الانتظار الثقيل، ويبدأ استعداداته للسفر الذى سيقربه من حلم السعادة، فيحس بـهلع غريب لفكرة ابتعاده عنها وغيابـها من حياته للمرة الأولى بعد أربع سنوات حافلة بالـحب والعناء. وفى غمرة الآلام يرجوها أن يعقد قرانه عليها قبل السفر ليطمئن جانبه بـها فى غربته.. فتتردد فى القبول ثم ترجوه بعد تفكير أن يؤجل ذلك إلى أول أجازة له من عمله الجديد.

وامتثل لرغبتها صاغرًا وواصل استعداده للسفر، فحصل من عمله على إجازة دون مرتب، وأنـهى الإجراءات وهو يزداد اكتئابًا لفكرة الرحيل وهى تتردد بين تشجيعه عليه.. وبين "إثنائه" عنه فى لـحظات عابـرة تعبر له فيها فجأة عن "غضبها اللذيـذ" لفكرة سفره وابتعاده عنها، ويسعد بـهذا "الغضب" الـممتع أكثر من أى شىء آخر فى الـحياة ويعتبره دليلاً على الحب المكين.

وفى يوم الرحيل منذ عام نهض من نومه مكتئبًا وراح يعد حقيبته للسفر فى صمت، فرن جرس التليفون وجاءه صوتها هامسًا فى خوف جميل: هل حقًا ستسافر اليوم؟

فكاد يرجع عن قراره بالسفر لولا أن عادت هى بعد لـحظات وشجعته عليه، وبعد قليل رن جرس التليفون وجاءه صوتـها الـحبيب يقول له: هل حقًا تريد السفر؟ ثم توالى اتصالـها به كل بضع

دقائق يـحمل له فى كل مرة هذا التساؤل الحائر، فسلم بأن مـحبوبته طراز وحدها بين النساء وثَمِلَ بإحساس الحب والعرفان.

وسافر إلى عمله الـجديد وتـحمل عناء الاغتراب والبعد عنها بصعوبة قاتلة، وواصل كتابة الرسائل إليها والاتصال بـها تليفونيًا كـل يومـين طوال عشرة شهور، آمن خلالـها بأنه لولا دفء صوتـها لما احتمل الـحياة فى مهجره يومًا واحدًا، ثم اتصل بـها ذات يوم فى موعده فلم يـجدها فى بيت أبيها، وأحسن فى صوت أمها بنبرة غريبـة أزعجته، فألحَّ عليها بالسؤال فصارحته بأن ابنتها قد عادت إلى زوجها منذ أيام حرصًا على مستقبل الطفلتين.. وأن كل شىء قسمة ونصيب!

ولم يدر كيف أنهى المكالمة ووضع السماعة فى موضعها.. ولا كيف عاش الشهرين التاليين حتى حان موعد إجازته الأولى من عمله. ولولا أن شقيقه كان يستعد للعودة معه فى الإجازة لما رغب فى العودة أو وافق عليها. وحين رجع إلى بلده تجنب زيارة عملـه السابـق حـتى لا ينكأ الجراح الـحية، وقضى أيام الإجازة هائمًـا بين بيت أسرته فى الريف وبيوت شقيقاته المتزوجات يعيش بلا حماس ولا رغبة فى شىء.. وتمنى فى أعماقه أن تجيئه فتاته "الغادرة" متورمة العينين دامية الأنف لتشكو له زوجها "المتوحش" كما كانت تفعل فى الأيام

"الجميلة"، لكن لقاءه بالمصادفة مع إحدى زميلاته فى عمله السابق قد بدد حتى هذا الأمل البعيد، فقد تطوعت بنقل أخبارها إليه ثم صارحته برأيها وبما يعتقده كل الزملاء من أنها لا تزال تحب زوجها رغم ما تلاقيه منه، وأنها كانت تستمتع بحبه لها وتستفيد من مؤازرته لها واستعداده لأن يفعل أى شيء فى الحياة من أجلها، فصافح زميلته مضطربا وأسرع الخطى بعيدًا عنها كأنما يولى الأدبار، ورغم الدلائل الواضحة فلقد تمسك بالأمل العجيب فى أن تفاجئه خلال إجازته بالاتصال به وتجديد عهدها معه!.

ولم يفارقه هذا الأمل اليائس حتى فى يوم السفر فتباطأ عامدًا فى إعداد حقيبته.. ومراجعة الأبواب والنوافذ المغلقة.. واختلس النظر مرات عديدة إلى التليفون الصامت يستجديه الرنين.. ولم يغادر الشقة إلا حين سلم باليأس المرير من كل شيء..

طفر الدمع فى عينيه حين بلغ فى خواطره مشهد الانتظار العاجز يوم الرحيل، ففوجيء بصوت السائق يقول له بنبرة إشفاق غريبة عليه:

ـ وصلنا يا أستاذ منذ دقائق.. وأخشى أن تفوتك الطائرة!

فغادر السيارة محرجًا من دمعه الذى فضحه أمام سائق السيارة ونقده أجره مجزلاً له العطاء.

فشكره السائق وقال له وهو يساعده على حمل الحقيبة "فاهمًا":

ـ طريق السلامة يا أستاذ.. الغربة صعبة لكنْ للضرورة أحكام.. مع السلامة!

فشكره بكلمات خافتة.. ومدَّ له يده مصافحًا ثم استدار حاملاً حقيبته وغاب فى زحام المسافرين!

رنَّ جرس التليفون وهما يتناولان طعام الإفطار وحيدين كعادتهما منذ ثلاث سنوات، فنهض الابن ليجيبه وتبادل بعض كلمات التحية مع محدثته ثم حمل التليفون إلى أبيه، وعاد للجلوس إلى المائدة وهو يقول له: عمتى خديجة يا أبى.. فتناول الأب السماعة ورحب بشقيقته، وهو يرقب ابنه فى حذر كأنما يخشى أن "يفهم" شيئًا من موضوع الحديث.. ثم قال لشقيقته: ليس بعد يا خديجة.. سأفعل.. سأفعل وسأبلغك فى حينه إن شاء الله.. شكرًا مع السلامة!.

ووضع السماعة فوجد ابنه يتطلع إليه مستفسرًا، وكانت الوحدة قد جمعت بينهما منذ رحيل الأم منذ ثلاث سنوات، وأزالت كل الحواجز فاعتادا ألا يخفى أحدهما عن الآخر شيئًا.. فقال له الأب: عمتك تريدنى أن أفاتح صديقى عبد العظيم برغبة أحد معارفها فى التقدم لابنته وقد وعدتها بأن أفعل اليوم لكن الوقت مازال مبكرًا!

2

وعادا لتناول الطعام فلاحظ الابن أن أباه لا يكاد يأكل شيئًا ولفت نظره إلى ذلك، فنهض الأب عن المائدة رافعًا طبقه وهو يقول لابنه: يبدو أن معدتى ليست على ما يرام هذا الصباح.. لهذا سأكتفى بشرب الشاى فى الشرفة.

ودخل إلى المطبخ فأفرغ طبقه من محتوياته وغسله، وصنع كوبًا من الشاى وتوجه به إلى الشرفة ثم أشعل سيجارة، وفتح صحيفة الصباح ودس رأسه فيها كأنما يتجنب نظرات ابنه إليه ومن بين طياتها راح يرقبه فى إشفاق وهو يتناول طعامه، ثم يرفع الأطباق ويعيدها للمطبخ، ويرجع ومعه قطعة من القماش المبلل يمسح بها مائدة الطعام ثم يختفى فى المطبخ من جديد.

الوحدة أفضل مدرسة لتعليم الإنسان كيف يعتمد على نفسه، وقد تعلما منها أن يقوما بشئون حياتهما معًا.. أما فى الأيام الجميلة فلم يكن هو ولا ابنه يعرفان كيف يغسلان طبقًا أو يصنعان طعام الإفطار.. كانت تقوم عنهما بكل العمل وتحرص على أن يتلألأ مسكنها دائمًا ببريق النظافة والجمال، وتقول لابنها حين يعرض عليها مساعدتها فى شئون البيت: حسبى منكما أن يكافح أبوك فى عمله لتوفير نفقات حياتنا.. وأن تجتهد أنت فى دراستك أما البيت وشئونه فهما واجبى!

جميلة وطيبة وعطوفة.. وأمٌّ بالفطرة، فاضت أمومتها على ابنها الوحيد وامتدت فأغرقته هو بعطفها وحبها.. أسعد أوقاتها كانت فى أوقات الصباح من يوم الجمعة. تنهض مبكرة.. تأخذ حمامها والزوج الحبيب والابن الأثير يغطان فى نومهما العميق، ترتدى أجمل

فساتين البيت وتتعطر وتعقص شعرها الطويل وتثبته بفراشة وردية، ثم تشعل أعواد البخور التى تتفاءل بنشر شذاها فى مسكنهم يوم الجمعة، وتصنع لهما إفطارًا مميزًا لا يحظيان به إلا يوم العطلة ثم تدخل إلى زوجها النائم فى فراشه وتوقظه برفق، كأنما تشفق عليه من أن تحرمه من نومه اللذيذ فتهمس له داعية إياه للنهوض.. وتمهله مهلة أخرى ليستمتع بدقائق أخرى من النوم، وتذهب إلى ابنها الوحيد فى غرفته وتكرر معه المهمة بنفس الهمس العطوف، فلا يغادران الفراش إلا وقد تنقلت بين غرفتيهما عدة مرات!

قمة سعادتها حين يجلسون جميعًا إلى المائدة فتوزع عليهم الطعام وتستحث زوجها وابنها على تناوله بشهية، أما شاى الصباح فموعده فى الشرفة حيث يجلس الآن وحيدًا مع صحيفته.. وقد تعلم الابن منذ طفولته أن يحترم موعده، وأن يؤجل رغبته فى الحركة واللعب إلى ما بعد الانتهاء من تناوله مع أبيه وأمه.

فى المقعد المقابل له كانت تجلس وتصب الشاى. وتتلذذ باحتسائه ويستمتع هو بالحديث إليها.. ويتردد بين الكلام معها وبين قراءة الصحيفة.. فتحتج على انصرافه عنها إلى صحيفته، وتعيد عليه رجاءها بألا يشغله عنها شىء فى هذا الصباح الجميل! أما الابن فيحتسى كوبه خطفا، ويسرع إلى الداخل لينفذ براجمه للعب والشَّيْطنة

هذا الصباح وتدعه أمه يفعل ما يشاء بلا حرج.. ففى يوم الإجازة تختفى كل التحفظات والقيود.. ويرتع الابن فى المسكن الجميل.. يبنى قصوره من المكعبات. أو يدير قطاره الكهربائى أو يشاهد التليفزيون بلا تحديد لمواعيد المشاهدة كما فى أيام الأسبوع.

أما هى ففتنة متنقلة تتحرك فى البيت الجميل نافثة عطرها وحيويتها وبهجتها على كل الأشياء. تختفى فى المطبخ دقائق فيفتح صحيفته منتهزًا فرصة غيابها، ويستغرق فى القراءة بعض الوقت ثم يضع الصحيفة على الفور حين تهل عليه بابتسامتها الساحرة حاملة قهوة الصباح!

لم يكن قبل أن يتزوجها من هواة القهوة ولا من محبيها، وفى أيامهما الأولى معًا كان يتجرعها صابرًا مجاملة لها بعد الإفطار ثم عشقها وأدمنها فأصبح أكثر حرصًا عليها منها.. هوايتها بعد أن يفرغا من احتساء القهوة أن تقلب فنجانه فى طبقه بعض الوقت وترفعه، وتدقق النظر فيه باهتمام شديد يثير ضحكه ثم تبتسم فى "فهم" أو تجلس ساهمة للحظات وهى تتمتم "اللهم اجعله خيرًا".. وهواجسها اللذيذة دائمًا هى: من هذه "المرأة" التى تظهر إلى جوارك فى الفنجان؟ ولماذا "تنظر" إليها هكذا؟ وماذا تريد منك؟ فيضحك من أعماقه ويطلب أن "يراها" لكى يستطيع أن يجيبها عن السؤال، ثم

يرفع يدها ويقبلها بامتنان فتهدأ خواطرها ويعود لها مرحها وابتهاجها!

عن أمها اكتسبت عادة تناول القهوة.. وهواية قراءة الفنجان فعرفت بذلك بين إخوته وزوجاتهم، وانهالوا عليها فى كل زيارة بطلب قراءة حظوظهم.. وأحبوها لرقتها مع الجميع وطيبة قلبها ومشاركتها لهم فى كل الواجبات العائلية، تزور المريض منهم وترجع من عنده محمرة العينين من البكاء إذا كانت الأزمة شديدة، وتشارك إخوته أحزانهم فتبكى مع الزوجة الغاضبة من زوجها.. والأم الحزينة لرسوب ابنها، وتجامل الصغار فى مناسبات نجاحهم وأعياد ميلادهم وتدعو الجميع إلى عيد ميلاد ابنها الوحيد.. ودعاؤها المفضل فى كل مناسبة هو أن يحفظ الله عليها زوجها وابنها، فمضت السنوات معها كالحلم الجميل. ولم تفارق بيتها مرة إلى بيت أسرتها غاضبة أو محتجة على شىء، ولم يتجاوز أى خلاف عابر بضعة أيام تمضيها أو بعض ساعات باكية دامعة العينين. ولم يشكُ منها أحد من إخوته أو زوجاتهم أو أزواجهم، فكأنما كانت جائزة السماء له عن حرمانه من أمه فى طفولته وعن حرمانه من أبيه وهو فى سن العاشرة وتنقله بين بيوت إخوته حتى تخرج وتزوج.

وقت الظهيرة من يوم الجمعة كان موعده مع أفضل الوجبات

المحببة إليه والتى تتفنن فى صنعها له من يوم الخميس حتى لا يشغلها عنه شىء يوم الإجازة.. وأما المساء ففى زيارة الأهل والأقارب أو فى نزهة بريئة مع ابنهما الوحيد بالمدينة، وعبثًا حاول أن يقنعها بالخروج صباح يوم العطلة فى رحلة إلى أى مكان أو إلى أحد الأندية.. فسدت عليه كل المنافذ بأن سعادتها هى فى أن تمضى أوقات الصباح معه ومع ابنها الوحيد فى بيتها.

وفجأة شكت الزوجة الحبيبة التى لـمْ تشكُ يومًا مرضا من ألـم عابر فى صدرها.. واصطحبها إلى الطبيب فكانت زيارته نـهاية للأيام الـجميلة فى حياته وبدايـة لرحلة العذاب والألـم، فمن طبيب إلى طبيب تنقل بـها واكفهرت السماء فى حياتـهم للمرة الأولى، وتكاثرت السحب الثقيلة الكئيبة.. حتى غابت عن بيتها ذات صباح حزين منذ ثلاث سنوات بعد رحلة قصيرة مؤلمة مع المرض، وخلفت وراءها أرمل ذاهلا وصبيا حزينًا فى الثانية عشرة من عمره!

وواجه حياته الـجديدة مكتئبًا وممرورًا، وقاسى الأمرين مع بكاء ابنه الـمتصل على أمه الراحلة وافتقاده لـها.. وحاول بكل جهـده أن يعوضه عن غيابـها فـزاد من عطفه عليه ورعايته له.. وبالغ فى الترويـح عنه باصطحابه معه إلى ملاعب الكرة والسلة والـمسارح ودور السينما وإلى كل مكان يذهب إليه، حتى اعتاد الـجيران أن

يروهما معا غاديـن رائحين مشتبكين دائمًـا فى حديث متصل.. ولاحظ هو بقلق أن ابنه ليس له أصدقاء من سنه عدا زملاء الدراسة، فشجعه على الاقتراب من أبناء إخوته وأبناء الـجيران المماثلين له فى السن وتبادل الزيارات معهم.

وبعد عام ثقيل تولى فيه كل شئون البيت وحده بدأ يدربه على تسوية فراشه بعد النهوض من النوم وتنظيف غرفته.. ورفع الأطباق عن المائدة وغسلها، ووجد استجابة طيبة منه لمشاركته أعباء حياته فاطمأن جانبه من هذه الناحية بعض الشيء، وواصل الأب عمله الحكومى وحياته الخالية من دفء الحب والزوجة العطوف، وبقى له من طقوس الأيام الجميلة حرصه على قضاء ساعات الصباح يوم العطلة فى الشرفة بعد تناول الإفطار مع ابنه وقراءة الصحيفة.. واحتساء القهوة التى لم يعد أحد يستقرىء له طالعه فيها.

وحرصه على أن يدع للابن أن يفعل ما يشاء فى يوم عطلته بلا قيود ولا تحفظات.. واستراح حين رآه يضيف إلى مشاغله فى هذا اليوم مع اقترابه من سن الفتوة أداء التمرينات الرياضية مستخدمًا بعض الأدوات الثقيلة.

ويوما قالت له شقيقته العطوف خديجة:

ـ إلام تبقى بغير زواج وأنت فى سن الرجولة؟

فاهتز للفكرة اهتزازًا شديدًا ورفضها بإصرار مشفقًا على ابنه

الوحيد من أن يحس ذات يوم بتراجعه عن بؤرة اهتمام أبيه.. لكن إخوته لم يسلموا بالهزيمة، وانضم إليهم صديقه المقرب عبد العظيم الذى ناقش معه مخاوفه طويلاً من إيلام مشاعر ابنه بزواجه من امرأة أخرى بعد أمه، وهون عليه الأمر واعدًا بأن يتولى عنه مفاتحة الابن فى ضرورة أن يتزوج أبوه من سيدة تخفف عنهما معًا عناء وحدتهما، وشكر صديقه طويلاً ورجاه أن يؤجل ذلك إلى أن تدعو إليه الضرورة.. وفكر هو أكثر من مرة فى أن يجس نبض ابنه تجاه الفكرة الجريئة، فهمّ أكثر من مرة بأن يسوقها فى صيغة تساؤل ضاحك عما إذا كان يزعجه حقًا أن يتزوج أبوه ذات يوم بمن تشاركه الاهتمام بأمره، فوجد نفسه يتراجع فى كل مرة فى اللحظة الأخيرة!

ثم نهض ذات صباح من نومه منزعجًا بإحساس البلل فهرول إلى الحمام وهو يغالب شعورًا غريبًا بالخجل والحرج، وأسرع فألقى بملابسه فى الغسالة كأنما يخفيها عن ابنه، وتساءل بعدها هل يستطيع ابن الخامسة عشرة أن يدرك حقًا عمق احتياجه إلى امرأة أخرى فى حياته القاحلة؟

وكأنما قد أحست شقيقته خديجة بأن شيئًا ما قد تغير فى روحه تجاه فكرة الزواج، فدعته لزيارتها وحده ذات مساء وقدمته إلى جارة لها مطلقة فى الأربعين من عمرها ولديها ابنة وحيدة تعيش مع أبيها،

وفهم الإشارة سريعًا فلم يتراجع كما توقع وأمضى وقتًا طيبًا يتبادل مع شقيقته وضيفتها الحديث، ثم غادرتها الضيفة بعد وقت محسوب فقالت له خديجة: طيبة وعاقلة وجميلة ومن أسرة كريمة وتحن إلى الاستقرار بعد ما صادفها من سوء حظ مع زوجها الأول.. فما رأيك؟

فسلم بما فى خطتها من حكمة ظاهرة ووعدها بالتفكير جديًا فى الأمر.. ولاحقته خديجة فى الأيام التالية بالسؤال عما انتهى إليه فكره وشاركها إخوته وصديقه المقرب بالضغط والإقناع حتى سلم بالقبول، ولم يتبق إلا الخطوة الأخيرة والخطيرة وهى مفاتحة ابنه الوحيد فى اعتزامه الزواج، وعرض شقيقه الأكبر وصديقه عبد العظيم وشقيقته خديجة أن يتولى أحدهم المهمة، لكنه أشفق على ابنه مما سيشعر به من حرج وألم تجاه الآخرين، وفضل أن يتولى الأمر بنفسه مطمئنًا إلى أن ابنه لن يخفى عنه حقيقة مشاعره ومعاهدًا نفسه ألا يقدم على الزواج إذا استشعر عمق تألم ابنه للفكرة أو إذا رفضها بعنف وإصرار!

وفى مساء الليلة السابقة زار شقيقته خديجة ووجد عندها جارتها بترتيب مسبق وتحدثا طويلاً عن كل شىء.. ولم تختلف وجهات نظرهما حول شىء، وكان قد التقى بها فى الأسابيع الماضية عدة مرات فاستشعر فيها صدق لهفتها على الاستقرار والنجاح فى حياتها

الجديدة.. ولمس فى شخصيتها انكسارًا وطيبة تعلق بهما أمله فى أن يكونا بشيرًا بعطفها المرتقب على ابنه الوحيد، ثم غادر شقيقته ليلة أمس واعدًا إياها بمفاتحة ابنه فى الأمر فى صباح اليوم التالى وهو يوم العطلة الذى يجمعهما معا طوال النهار.

أفاق من أفكاره على صوت ابنه يقول له: عمتى خديجة على التليفون مرة أخرى يا بابا فأنزل أبوه الصحيفة عن وجهه، وتأمل ابنه باهتمام خفى وهو يرتدى الشورت والعرق يبلل ملابسه وسأله كم الساعة الآن يا هشام؟ فنظر الابن خلفه إلى ساعة الحائط.. وأجابه: الحادية عشرة. فتعجب الأب كيف مضت عليه ساعتان وهو فى مجلسه يقرأ الصحيفة ولا يكاد يستوعب منها شيئًا، ثم نهض إلى التليفون متثاقلاً.

وسمع الابن وهو نائم على الأرض يرفع ثقلاً صغيرًا فوق صدره صوت أبيه يقول لعمته:

ـ ليس بعد يا خديجة.. ليس بعد. قلبى لا يطاوعنى.. نعم.. نعم.. سأحاول مرة أخرى.. شكرًا لك!

هل يمكن حقًا أن تتغير المشاعر من النقيض إلى النقيض، هكذا كل يوم وإلى مالا نهاية؟.. وهل قدر عليّ أن أحيا أيامى كلها فريسة لـهذه التقلبات الـحادة.. أنعم بالحب قليلاً وأشقى بالـجفاء والقسوة معظم الأوقات؟.. إن زملائى يقولون لى إنها لا تحبنى ولا ترانى فتى أحلامها وإنها قبلت بخطبتى لها طلبًا للاستقرار أو الزواج كأى فتاة عادية لم تشأ أن تضيع فرصة لاحت لها للارتباط بشاب مناسب، لكن حتى لو كان الأمر كذلك فلماذا تمتحننى بالعذاب كل يوم؟ ولماذا لـم تقل لى بعد فترة من الخطبة إنها فشلت فى أن تستجيب لمشاعرى أو تتقبلنى نفسيًا، ولا تريد لنفسها أن تتزوج شابًا لا تحبه ولهذا فهى تريد أن يبحث كل منا عن سعادته فى اتجاه آخر؟ ولماذا تفضل أن تظل محتفظة بالخيط الرفيع الذى يربطنى بها حتى اللحظة الأخيرة، وكلما ضقت بقسوتها وغرورها جذبتنى إليها وأنستنى بعض معاناتى معها؟.

3 إن زملائى وزميلاتى فى الهيئة التى أعمل بـها لا يـحبونها، ورغم أنه تجمع مكاتبنا الـمتجاورة صالة واسعة فعلاقات معظمهم بـها متوترة.. وقد قابلوا خطبتى لها بفتور، وقال لى أكثر من واحد منهم إنه يشفق عليّ من غرورها وتناقضاتها فلم أسمـع لـه. أما أقربهم إلى قلبى وهى زميلتى سميحة فلم تكن

تكرهها وإن كانت تعيب عليها بعض تصرفاتـها.. وقد قابلت خطبتى لها بمزيج من الابتهاج لى والإشفاق علىّ. إنها سيدة فاضلة فى الرابعة والثلاثين من عمرها وزوجـة وأم سعيدة فى حياتـها الـخاصة، سبقتنى فى التخرج من نفس الكلية بأربعة أعوام وساعدتنى كثيرًا فى عملى حين التحقت به، وأعطتنى خبرتها عن العمل والزملاء الذين نتعامل معهم، فارتـحت إليـها كثيرًا واعتبرتـها أختًا لى وأمينة لأسرارى.. وحين لاحظت ولـهى بفتاة القلب "وفاء" نبهتنى إلى ضرورة الاعتدال فى مشاعرى تـجاه هذه الفتاة التى تـجيد التحكم فى مشاعرها ولا تستسلم لعاطفتها أبدًا.. وسمعت نصيحتها شاكرًا لكنى لـم أستطع الالتزام بـها، فلقد كان حبى لوفاء طوفانًا جارفًا جرف فى طريقه كل مقاومة، واكتفيت باستشارتـها من حين إلى آخر فى تفسير بعض تصرفات فتـاة القلب التى بدت لى غاضبة. فلقد فاتحتها بحبى ورغبتى فى خطبتها ورحبت بى وشجعتنى على التقدم لأبيها، وقالت لى إنها تـحبنى أيضًا، لكن تصرفاتـها ظلت متناقضة وغريبة لفترة طويلة تغار من حديثى إلى زميلاتى وخاصة إلى السيدة سميحة وتنهانى عن الـحديث مع أى زميلة سواها، وتثور علىّ فى نفس الوقت إذا لفت نظرها بإشفاق إلى صلتها الحميمة بأكثر من زميل لنا فى الإدارات الأخرى، وخاصة من هم أكبر سنًا ومنصبًا وتتهمنى بالتخلف والجمود وتصرخ فىّ.. كيف تعيش مع صاحب

عقلية كهذه العقلية الرجعية؟.. فأتراجع مرغمًا وأسحب اعتراضى وهى أيضًا تطلب منى الكثير.. وتطالبنى بشقة أفضل من الشقة التى أعددتها للزواج مع أنها شقة مناسبة للغاية وبشبكة فوق قدرتى واحتمالى.. وبإقامة حفل الزفاف فى فندق كبير لأنها ليست أقل من أى فتاة فى أسرتها.. وفى نفس الوقت تطالبنى بتحمل كل تكاليف تأثيث الشقة وحدى ودون أية مساهمة منها أو من أسرتها الكبيرة فى الجهاز، سوى بملابسها الشخصية، وتصرخ مؤكدة لى أن هذا هو العرف السائد فى أسرتها لإثبات مدى "اعتزاز" العريس بعروسه وليس من عجز أو نقص فى إمكانيات أسرتها!

وأستشير زميلتى المخلصة فتنصحنى بالرفض، وتفسر لى طلباتها هذه بأنها تشعر بعمق حبى لها ورغبتى فيها، وتريد أن تفرض علىَّ كل رغباتها.. وأحاول الاستجابة لصوت الحكمة فى نصيحة زميلتى فأجدنى عاجزًا بعد قليل عن الصمود!. وتمضى الأيام فألاحظ أن فترات صفائنا قليلة وفترات مشاحناتنا طويلة.. وأن مزاجها يزداد عصبية وحدة يومًا بعد يوم، وألاحظ تهجمها علىّ فى كل مناسبة دون مراعاة لشعورى أمام أسرتها أو أمام زملائى، فأيأس منها وأرتد مبتعدًا فلا تدعنى لنفسى طويلاً، وإنما تطالعنى بعد أيام أتجرع خلالها كأس العذاب مترعة بالوجه الباسم القديم الذى جذبنى إليها فى البداية.. وتشعرنى بلفتة أنثوية أخاذة من لفتاتها

الساحرة أنـها مازالت تـحبنى.. فأنسى ما تعذبت به وأعود للغوص حتى الأعماق السحيقة فى بحر حبها، وتتواصل أيامى متشابـهة أنتقل من السعادة إلى العـذاب، وتواصل هى التذبذب بين الرضا والسخط إلى ما لا نـهاية.. وتكثر أعذارها لرفض زيارتـى لـها فى بيتها أو للخروج معى بعد مواعيد العمل بحجة "الصداع" الدائم الذى يحول بينى وبين أن أسعد بقربها وحبها.

وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد.. فلقد تجاوزت الحدود مرارًا فى تعاملها معى أمام زملائى.. وأصبحت نظرتها الغاضبة الساخطة تجرحنى بينهم حين تلومنى بعنف لا يحتمله الموقف على أى كلمة أو عبارة لا توافق هواها.. والزملاء مشفقون.. وأنا محرج حتى نهرتها زميلتى الطيبة سميحة أكثر من مرة.. وقاطعتها تعاطفًا معى.

وفكرت فى كلماتها الـمؤلمة طويـلاً، وقررت أكثـر من مرة أن أفك عن نفسى أسر حبها.. وبت أكثر من ليلة وأنـا عاقـد العزم على أن أذهب إلى العمل فى الصباح لأقول لـها أمام الزملاء: يا آنستى لقد كان "ذنبى" الذى عاقبتنى به طويلاً أمام زملائى هو أنى أحبك، لكنى الآن قد تـخلصت من هذا "الذنب" وكفرَّت عنه.. ولـم أعد أحبك ولا أريد أن أتزوجك فاحتفظى بشبكتك هدية منى أو رديـها إذا أردت.. لكنى أخلع من يدى الآن دبلتك ومعها أخلعك من حياتى نهائيًا.

اعتزمت ذلك مرارًا وقررت أن أنفذه بهذه الطريقة العلنية وتخيلت نظرات الارتياح والشماتة على ستعلو وجوه معظم الزملاء والزميلات الذين يكرهون فيه غرورها وتكبرها وتجبرها علىّ.. وتخيلت ابتسامات الرضا والتشجيع التى سيخصوننى بها، فذهبت إلى العمل أكثر من مرة مصممًا على أن أنفذ ما اعتزمته، فما إن أقترب من مكتبها متجهمًا حتى تحس بغريزتها بما أنتويه ولا تدع لى فرصة لتنفيذه.. وإنما تبادرنى بابتسامة ساحرة وتقول لى بصوت رقيق شاكٍ: أهكذا تتركنى بلا كلمة واحدة منذ يومين.. وتدعنى لقلقى وحيرتى طوال هذه الفترة؟!

ثم تلتفت إلى زملائى وزميلاتى "وتشكو" لهم من "قسوتى" عليها حتى جافاها النوم طوال اليومين الماضيين..! وأسترد ثقتى فى نفسى.. وفى "حبها" لى.. وأعيش أسعد لحظات عمرى وتخصنى الساحرة باهتمامها ورعايتها يومًا أو بعض يوم حتى يكاد تشعرنى بأننى ملك وبأنها جارية فى بلاطى، ثم تعود بعد قليل إلى سيرتها الأولى وتتكرر القصة بنفس التفاصيل. وأشكو لزميلتى الطيبة فتقول لى إنها تلعب بخيوطى كيف تشاء، وكلما شعرت بقرب تحررى من رِقِّها جذبت خيوطى إليها وقربتنى منها فأنسى لها كل إساءة! ولم يكن ذلك خافيًا علىَّ تمامًا فلقد كنت أعرفه، لكننى عاجز عن التحرر من

أسْرها.. ومن المؤلم حقًا أن يعرف الإنسان "داءه" ولا يستطيع أن يتخلص منه.

وهكذا ظللت أخدع نفسى بحبها إلى أن جئت هذا الصباح إلى العمل.. ودخلت إلى الصالة الكبيرة التى تجمع مكاتبنا وألقيت تحية الصباح على زملائى، واتجهت بنظرى كالعادة إلىَّ مكتبها فوجدته خاليًا.. ووجدت بعض الزملاء ينظرون إلى نظرات غريبـة كأنها يعرفون شيئًا ما ويـخفونه عنى، فسألتهم عنها فقالوا لى إنها جاءت للعمل لدقائق وانصرفت. اتصلت ببيتها فجاءنى صوت أمها متحفظًا يقول لى إنها ليست فى البيت ولا تعرف متى تعود. بدأت عملى.. فلاحظت بعد قليل أن جوًا من الوجوم يسود الإدارة.. ورفعت نظرى من فوق أوراقى فرأيت أكثر من زميل ينظر إلىَّ، فما إن تلتقى عيوننا حتى يتجاهلنى! وتأكدت من أن شيئًا ما قد حدث واتـجهت إلى مكتب زميلتى الـمقربة وسألتها عما لاحظته.. فنظرت إلىَّ طويلاً ثم قالت لى والزملاء يتشاغلون عنا بأوراقهم: فلانة تنهى إجراءات سفرها إلى الـخارج، وقد قدمت هذا الصباح طلبًا للحصول على إجازة دون مرتب.

السفر للخارج؟ وإجازة دون مرتب! خطيبتى ستسافر للخارج بغير علمى؟ لماذا.. وكيف؟

وعرفت القصة التى تحاشى زملائى أن يواجهونى بها حين جئت للعمل هذا الصباح الكئيب.

لقد ركلتنى فتاتى الغادرة التى تلاعبت بى شهورًا طويلة من حياتها فى لحظة واحدة.. وبلا أى إحساس بالذنب تجاهى أو الندم! لقد ارتبطت بزميل فى إدارة أخرى من إدارات الهيئة أُعير للعمل فى إحدى دول غرب أفريقيا، وهما يستعدان الآن للزواج والسفر خلال أيام.. أما خطبتى لها فما أهون أمرها وأما قلبى الذبيح فما أهون شأنه.. فشبكتى والدبلتان سلمتها الغادرة لزميلتى الطيبة سميحة، وطلبت منها فى كلمات متعجلة ألا أغضب منها لأنها لم تكن لى من البداية.. ولم نكن لنسعد معا لأننا شخصيتان مختلفتان.. وإمكانياتى محدودة وهى طموحة ولن تسعد بحياة جافة بسيطة! ثم غادرت المكان بلا وداع وسيعقد القران غدًا.. وسيتم السفر هذا الأسبوع.. ولا عزاء للمخدوعين والتعساء!

ظللت أنظر مشدوهًا إلى زميلتى سميحة وهى تروى لى القصة العجيبة بعبارات مخففة.. وتحاول تهوين الأمر كله علىَّ.. وتقول لى إن علىّ أن أشكر الله كثيرًا أن أنقذنى من الحياة مع إنسانة لا تحبنى ولا تقدرنى ولم تكن مخلصة لى من البداية، وإنما اتخذت من خطبتى وحبى لها وسيلة خسيسة لإشعار "الآخر" بأنه سيفقدها

للأبد لكى يتحرك ويتقدم للزواج منها، وسمعت زميلتى تقول لى إننى أستحق فتاة أجمل وأفضل منها، وأنـها ستقدمنى إلى جارة لها آية فى الجمال والأخلاق والمنبت الطيب، وستكون أفضل عزاء لى عما تعرضت له من غدر وخيانة وتلاعب بمشاعرى الصادقة من هذه الغادرة، وستثبت لى الأيام أننى قد نجوت من مصيدة كريهة، فخيل إلى فجأة أن وجه سميحة ينتفخ وهى تحدثنى كالبالون ثم يعود إلى طبيعته بعد فترة ثم يرجع للانتفاخ من جديد! ولاحظت بدهشة واستغراب أن شفتيها قد تضخمتا كثيرًا كثيرًا وهى تتحدث إلىَّ حتى خشيت عليهما من الانفجار، وكدت أحذرها من ذلك.. ثم شاهدت فجأة "برصا" صغيرًا يسير ببطء وحذر على الـحائط خلف رأسها مباشرة.. كأنما يسمع ما تقوله لى.

وهممت بالتحرك لكى أقتله وأبعده عن زميلتى الطيبة.. لكنى عجزت عن الحركة فجأة ووجدت شيئًا كالضباب الرمادى الفاتح يملأ الجو أمامى ووجه سميحة يغيب شيئًا فشيئًا وراءه، فرفعت ذراعى لأنفض هذا الغمام لكيلا يحجب عنى وجه زميلتى الطيبة، فسمعت صوتًا آتيًا من بعيد يقول بفزع: اسنديه يا سميحة قبل أن يقع.. ولم أسمع بعد ذلك ولم أر شيئًا!

"طبق الأصل: من يوميات شاب مطعون فى قلبه ومشاعره".

جميلة كالزهرة الندية.. مغرية كالحلوى المسكرة لكن القلب لم يهنأ بالراحة رغم المؤهلات. وبعد ثلاثة أعوام من الحب الصافى وجدت نفسها أمام العدم. والعمر يمضى وحبيب القلب يتعثر فى ظروفه ويبدو مستسلمًا لها.. وأمها تعيرِّها بصديقاتها اللاتى تزوجن وأنجبن وهى مازالت تتعلق بالأمل الخائب. وأبوها يذكرها بأن قطار العمر لا ينتظر الخائبين. وفى شدة ضيقها طرقت باب مكتب رئيسها المباشر فى الشركة فى موعدها الصباحى، ودخلت فرفع إليها رأسه مبتسمًا، لكنه رأى فى ملامح وجهها ما يشى بمتاعبها.. فخفتت الابتسامة.. وانتظر الزوبعة متوجسًا. عريس جديد مرة أخرى. وأزمة عائلية جديدة.. وتساؤل من حبيبة القلب يذكره بعجزه عن حمايتها من الطامعين. تقول له بعينيها كل مرة: متى تستطيع حمايتى.. متى تتقدم.. فيحس القلب بطعنة الألم.. وتفسد الأوقات.

4

فى بداية الحب كانت هذه اللحظات هى متعة اليوم وعزاء المعذب عن تعاسته. نصف ساعة من الزمن لا تزيد، لكنها تعدل الليل كله والنهار. تجلس أمام مكتبه كالوردة المتفتحة.. تنظر إليه بعينيها الجميلتين باسمة. تسأله كيف أمضى

ليلته الماضية وماذا فعل.. ومن قابل! تسمع باهتمام يطرب له القلب الحزين. وحتى تفاصيل التفاصيل فى حياته العائلية تحب أن تعرفها وتتابعها بنفس الاهتمام. ويسألها هو عما فعلت فى يومها فتروى له كل شىء.. حتى لون بيجامتها التى تنام فيها يجب أن يعرفه.. ومنها عرف ألوان بيجاماتها وأحب فى الخيال بيجامتها فستقية اللون.

كيف نشأ الحب.. لا يعرف.. وكيف استسلم له.. لا يدرى.. لم يكن البادىء بالاقتراب.. لكنها هى التى اخترقت الحواجز بجرأة غبطها عليها. فتراكم الاهتمام والحنان يومًا بعد يوم حتى صار جبلاً من الحب المكتوم. اعترف لنفسه بأنه أسير حبها.. لكنه لم ينطق بما ينوء به قلبه. تعاسته أوضح من أن يحاول إخفاءها.. لكن اللسان عاجز عن التعبير. زوج تعيس وأب لابنتين يقتربان من سن المراهقة وفى الأربعين من عمره.. وهى وردة فى الرابعة والعشرين من عمرها فكيف للغريبين أن يلتقيا على شاطىء الأمان؟ لكن فتاة القلب لم ترض بالعجز والسكون.. ويومًا دخلت مكتبه فى الصباح الباكر ووضعت فى يده لفافة صغيرة ففتحها بحذر؛ فإذا بها قلب أحمر اللون جميل منقوش عليه هذه العبارة الساحرة: لا تنسنى!

فنطقت الشفاه بالحب المكتوم. وناقشا الأمر بموضوعية وأمل.. روى لها عن عذابه مع زوجته كثيرة الشجار والخصام والهجر.. والتى

تجاهره بالكراهية والجفاء، وإشفاقه على ابنتيه من العذاب. وسمعت له وعيناها تنديان بالدمع تأثرًا بتعاسته. واتفقا على أن ينتظرا الوقت المناسب الذى يستطيع فيه أن ينجو بحياته من هذه التعاسة ويتزوجها.

وأصبح لقاء الصباح القصير مع فنجان القهوة هو واحته التى يستظل بها من هجير تعاسته. ومن حين إلى آخر تروى له عن معركة عائلية جديدة نشبت بينها وبين أبويها حول عريس ملائم رفضته، فينقبض باطنه ويشعر بمسئوليته عن هذا العناء.. وتروح هى تخفف عنه إحساسه بالذنب وتؤكد له أنها لن تتزوج إلا من تحب ولو أمضت العمر كله فى انتظاره. يقول لنفسه عقب كل محنة: جميلة وطيبة وصادقة الحس وقوية الشخصية وسمعتها لم تشبها شائبة.. فلماذا تحكم على نفسها بهذا العناء؟

وتقول هى لنفسها جاد ومستقيم وإنسان وحتى منافسوه فى العمل يعترفون له بأمانته وطهارة يده.. فلماذا يحرم من كان مثله من السعادة والأمان؟

وعقب إحدى الأزمات جاءت إلى لقاء الصباح متورمة العينين من البكاء فسخط على نفسه حتى الموت وقال لـها: سأقابل أباك ولو طردنى من بيته!

وفى المساء توجه إلى بيتها.. واستقبله الأب بفتور وقال له فى

طعنات قاتلة: زوج وأب فوق الأربعين وتحرم ابنتى من كل فرصها الطيبة منذ أعوام واقفًا فى طريق سعادتها.. فكيف تنتظر منى الترحيب؟ وكيف يكون تصرفك أنت لو جاءك يومًا خاطب فى ظروفك لإحدى ابنتيك؟

وغادر بيتها مهزومًا حزينًا.

وفشلت جهودها مع أبيها وأمها فى إثنائهما عن موقفهما الحاسم، وانهال عليها شقيقها الأكبر وشقيقتها المتزوجة باللوم والعتاب وشهد مسكنها اجتماعات عائلية خطيرة بلغ التهديد فيها منتهاه.. حتى انفجر شقيقها مصرحًا بأنه سيذهب غدًا إلى عملها ويقابل مديره العام ويشكو إليه رئيسها الذى يغويها ويضيع مستقبلها وهو زوج وأب، فلم ينقذها من تنفيذ هذا الوعيد إلا سقوطها مغشيًا عليها وسط ذهول الحاضرين.

وفى استسلام حزين قال لها حبيبها فى لقاء الصباح بعد أيام: ضميرى لم يعد يحتمل المزيد فسامحينى.. لقد قدمت طلبًا بنقلى إلى فرع الشركة بالإسكندرية وسأنقل حياتى إلى هناك.

وسألته بإشفاق عن موقف زوجته فأجابها واجمًا بأن ذلك كان مطلبها منذ البداية لتعيش بجوار أهلها، وقد آن الأوان لتنفيذه ليرفع عن حبيبته ما تلاقيه من عناء ثم خانته دموعه فانسابت فى صمت.. وجاوبته عيناها بمطر من الدمع الحزين.

واختفى حبيب القلب من مبنى العمل.. وتشابهت الأيام حتى فقدت الإحساس بمرورها. وبعد شهور دعاها شقيقها لزيارته فى بيته وقدم لها زميلاً له فى العمل، قال لها إنه يرغب فى الاستفادة بخبرتها العملية فى مسألة تشغله. واستسلمت للمصير، وبعد أسابيع صارحها صديق شقيقها بأنه يرغب فى التقدم لخطبتها.. وهمت بأن تقول له شيئًا فقاطعها قائلاً:

ـ أعرف كل شىء عنك.. ولا أطمع فى حبك الآن لكنى آمل فيه حين تجمعنا العشرة وتجدين فيها ما يمسح أحزانك.

وأحنت رأسها شاكرة وحزينة.

ومضت الإجراءات فى طريقها المرسوم.. وأبدى خطيبها المهندس الشاب روحًا كريمة واستجابة مرحبة بكل مطالبها. ورحل أبوها عن الحياة فى فترة الاستعداد للزواج فوقف خطيبها إلى جوارها فى المحنة وأبدى شهامة شكرها له الجميع. وغمرها بعطفه وحنانه وكرمه، فاعترفت لنفسها بأنه يصعب عليها تجاهل مودته لكن ما حيلتها فى القلب المحلق فى سماء بعيدة عنه. فحتى فى اللحظات التى كان ينبغى لها أن تكون سعيدة تتذكر الآخر، وتتذكر القلب الذى أهدته له وعبارته الموحية: لا تنسنى.. وتتذكر يأسه وحزنه فيحن القلب ويرثى له وحين اصطحبها خطيبها إلى معرض الأثاث لتختار

أثاث عشها. استغرقت فى مناقشة طويلة مع صاحب المعرض ثم التفتت إلى خطيبها فجأة لتستشيره فى أمر فرأت وجه الآخر الحزين فوق جسم الخطيب للحظة عابرة حتى كادت الأرض تميد بها.

لكن كل شىء مضى فى طريقه المرسوم رغم كـل شىء.. وتم الزفاف.. ورمقت عريسها إلى جوارها فى الـحفل.. ورأت ابتسامته العريضة وسعادته الطاغية فتمنت لو كانت تستطيع مشاركته البهجة والسعادة. وبقلب مـخلص دعت ربـها أن يوفقها إلى إسعاده جزاء لما قدم لها ولأسرتها من حنان ومواساة وعطف.

وفى الصباح المبكر تنبهت حواسها وهى مغمضة العينين فى فراش العرس فقفزت صورة "الآخر" إلى مخيلتها رغمًـا عنها.. وتساءلت ترى هل علم بزواجها الآن؟..

وتساءلت: أين مستقره فى هذه اللحظة من الصباح؟

وفتحت عينيها للمرة الأولى فرأت زوجها راقدًا فى فراشه ثملا بالرى والاطمئنان فلم تستطع أن تـحدد مشاعرها تـجاهه.. هل تكرهه؟ لا تستطيع أن تـجزم بذلك، فهو عطوف ومتسامح وراغب فى إسعادها والسعادة معها.. هـل تنفر منه؟ ليس بالضبط لكنها تضيق قليلاً بتعجله عطاءها له، وقد وعدها من قبل أن يصبر عليها حتى يتم تـمهيد أرض القلب وتصبح قادرة على الإنبات من جديد..

فالأرض تحتاج إلى فترة نقاهة.. يتعرض باطنها خلالها للشمس والهواء.. وتصبح صالحة لاستقبال البذرة الجديدة. وهى صادقة الرغبة فى العطاء.. لكن أطوار القلب ليست طوع بنانها. وتلفتت بعينيها ترقب غرفة نومها الوردية وبيجامتها فستقية اللون الجديدة التى اختارتها عن عمد، لتمضى بها ليلتها الأولى مع زوجها عسى أن تساعدها على استيعاب الموقف ثم عادت بنظرها إلى زوجها الراقد إلى جوارها وركزت عينيها عليه برهة.. ورغمًا عنها تراءت لها ملامح وجه حبيب القلب المحكوم بأقداره.. فجفلت لحظة.. ثم رقت مشاعرها وتذكرت القلب المهدى وعبارته الآسرة وفى أعماقها هتف صوت باطنى: لتهنأ له الحياة حيث يكون فلقد كان صادق الحب لكن ظروفه أقوى منه.

وانتبهت على حركة طارئة إلى جوارها فرأت زوجها يتقلب فى فراشه ثم يستقر وجهه مرة أخرى فى مواجهتها فرمقته طويلاً.. ورأت ظل ابتسامة يرتسم على وجهه وهو نائم فخمنت أنه يحلم حلمًا سعيدًا لعله يسترجع فيه أحداث ليلتهما الماضية.. فرق قلبها له.. وصدق عزمها على أن تشجع محاولاته للتقرب منها عسى أن تفلح الجهود فى تمهيد الأرض المجهدة لاستقبال بذرة جديدة.

ومن أعماقها قالت بغير كلام: إلهى.. لا تطل تمزقى بين نداء الواقع الحاضر وهتاف الماضى الجميل وعجِّل بإنبات بذور الحب من جديد!.

فتحت عينيها فى الصباح الباكر فمدت يدها بتلقائية إلى الـمنبه الـموضوع إلى جوار الفراش ونظرت إليه فوجدت الساعة قبل السادسة بعشرين دقيقة. أعادته إلى موضعه وبقيت فى فراشها تستشعر دفء الفراش.. وهدوء الصباح. لا حاجة لـها لتعجيل النهوض فالوقت مازال مبكرًا.. ومنبهها الداخلى يوقظها دائمًـا فى الأيام الأخيرة قبل الـموعد المطلوب رغم إجهاد النوم الـمتقطع والقلق، لـم تعد منذ عامين تـحتاج إلى صوت الـمنبه لإيقاظها فى الوقت الـمناسب.. ولـم تعد تسمع رنينه عدة مرات وتسكته فى كل مرة وتعود للاستغراق فى النوم، حتى تفاجأ بيد حانية تـهزها برفق فتفتح عينيها لتجد زوجها الذى أيقظها مستغرقًا تمامًا فى النوم، فتتعجب لقدرته على أن يوقظها وهو نائم.. وتلقى عليه نظرة باسمة وهى تفكر للحظات هل توقظه الآن لتحرمه من نومه اللذيذ كما أيقظها.. أم تتيح له دقائق أخرى للاستمتاع به.. وينتهى قرارها دائمًـا إلى الإشفاق عليه.. ومنحه فرصة إضافية لـمزيد من النوم، وتنهض لدخول الحمام ثم تتجه إلى الـمطبخ فتضع اللبن على النار وتعد شطائر الـجبن والـمربى.. وتـملأ الزمزمية الصغيرة بالماء الـمثلج وتطمئن إلى إعداد كل شىء، فتتوجه إلى غرفة طفلتها الصغيرة لإيقاظها، وفى حجرتـها يبدأ كفاح كـل

يوم مع الطفلة العنيدة لإقناعها بمغادرة فراشها إلى أن تيأس تمامًا من جدوى أى محاولة للبقاء فيه أو عدم الذهاب إلى مدرسة الحضانة، فتجلس فى فراشها ساخطة وتشرب كوب اللبن الدافىء بعد محاولات يائسة أخرى لرفضه، ثم تتحرك أخيرًا إلى الحمام وتقف متذمرة أمام أمها لتصفف لها شعرها، وتتأوه أو تصرخ احتجاجًا على "قسوة" ماما فى تمشيطها، ثم تنفرج الأزمة أخيرًا مع وضع الفيونكة الملونة فى مؤخرة شعرها.. وتسبق أمها إلى باب الخروج حاملة حقيبتها والشطائر وزمزمية الماء المثلج.. وتتقافز على السلم وقد اكتسبت حيوية الأطفال من جديد إلى أن تلحق بها أمها لتمسك بيدها وتخرج بها إلى الشارع فى انتظار أتوبيس المدرسة.. وتركب الصغيرة سيارتها أخيرًا وتلوح لأمها باسمة.. وتبادلها الأم تحية الوداع.. ثم تعود إلى مسكنها وتبدأ كفاحها الآخر مع الراقد فى فراشه وتزيح ستارة غرفة النوم فيغمرها الضوء.. وتدير جرس المنبه وتقربه بحذر من أذن زوجها.. وكلما مد يده بتلقائية ليجذبه منها ويسكته أبعدت يده عنه وهى تتكتم ضحكها.. إلى أن ييأس أيضًا من أى محاولة.. فيفتح عينيه متظاهرًا بالاستياء، فما إن يرى ابتسامتها العابثة حتى يغلبه الابتسام فيسألها سؤال كل يوم: ركبت هدى؟ وتجيبه بالجواب التقليدى، فيفكر قليلاً وهو مازال فى فراشه ويمسك بيدها ويقول لها كأنما اهتدى إلى فكرة جديدة ستسعدهما معًا:

ـ ما رأيك لو اعتذرت عن عدم الذهاب للعمل اليوم وأمضينا الصباح فى البيت نستمتع بالكسل والحديث معًا؟!.

فتضحك على رغمها للاقتراح شبه اليومى.. وترفع عنه الغطاء فجأة وتسرع بمغادرة الغرفة، فلا يجد مفرًا من النهوض، وينهض ويدخل الحمام ويحلق ذقنه ثم تجيئه بالفوطة الكبيرة والملابس الداخلية النظيفة وتساعده فى غسل شعره بالشامبو ثم تتركه إلى المطبخ لتعد الإفطار.. ويستسلم هو لماء الدش ويغادر الحمام حليقًا نشيطًا معطرًا.. فما إن يراها حتى يقول لها بحيوية وكأنه لم يرها إلا هذه اللحظة.. صباح الخير يا جميل! فترد عليه تحية الصباح باسمة، وقد علمتها العشرة المشتركة بينهما أنه لا يسترد تمام وعيه إلا بعد حمام الصباح.. ويجلسان إلى مائدة الطعام المستديرة يحتسيان الشاى بتلذذ.. ويتبادلان الأحاديث، وهو لا يكف عن مشاغبتها ومشاكستها حتى تغرق فى الضحك وتتهمه "بروقان البال" الذى لا مبرر له فى هذا الصباح الباكر!.

ثم ينهض لارتداء ملابسه فتلاحقه إلى غرفة النوم وتساعده فى ارتدائها.. وترقبه فى صمت وهو يتأنق وينفث العطر فى وجهه وملابسه فتسأله أحيانًا: لـمن تتأنق هكذا؟ فيجيبها مشاكسًا: لزوجتى الأخرى التى فى العمل! ثم يتفادى الوسادة الصغيرة التى تقذفه بـها

كل مرة بمهارة.. ويطاردها فى غرفة النوم ثم حول مائدة الطعام المستديرة معلنًا أنه لن يخرج إلى العمل إلا بعد أن يلقى عليها درسًا فى كيفية معاملة زوجها "باحترام"، وتنتهى المطاردة دائمًا باستسلامها لقبلته ومساعدتها له فى استكمال الأناقة.. وضبط عقدة الكرافت حول عنقه.. ثم يغادر الشقة مودعًا بابتسامتها وواعدًا بعدم التأخر فى العمل.

لم يكن كسولاً ولا كارهًا للعمل كما يتظاهر.. بل كان نشيطًا وأمينًا فى عمله ويكافح بإخلاص ليوفر لأسرته مطالبها.. ويعمل ساعات إضافية بعد انتهاء مواعيد العمل ليكسب بعض الجنيهات القليلة، ويصطحب أوراقه معه إلى البيت بعد العودة وينكب عليها بتركيز شديد، فيجتمع شمل الأسرة الصغيرة كل مساء حول نفس المائدة المستديرة فتجلس هى وطفلتها "هدى" فى جانب منها مع دروس اليوم فى المدرسة.. ويجلس هو فى الجانب الآخر منها مع أوراقه وحساباته.. إلى أن يحين موعد العشاء وتنام الصغيرة بعد أن يغلبها التعب.. فيخلوان لنفسيهما أمام التليفزيون.. أو يتسللان بحرص من الشقة الصامتة بعد أن يحكما إغلاق باب المطبخ ليزور أسرتها فى الشارع القريب.. أو يتمشيا قليلاً فى الشوارع.. أو يشتريا احتياجات الأسرة من البقال والمحلات التجارية القريبة.

كانت الحياة هانئة.. والأيام واعدة بكل جميل.. والحب يرفرف بجناحيه على عشهما الصغير. ولم تكن تعمل.. فقد تفرغت لزوجها وحبيبها وطفلتها بعد الإنجاب.. وحصلت من وظيفتها الـحكومية التى تعرفت على زوجها بفضلها على إجازة لرعاية الطفلة. وانتهت الإجازة وحل موعد عودتـها لعملها، فأشفق عليها من عناء العمل مع رعاية الصغيرة وإدارة شئون البيت.. وسألـها بإشفاق هل أنت حريصة عـلى وظيفتك الـحكومية هذه؟ فأجابته بإخلاص بأنـها ليست حريصة على شيء فى الـحياة سوى حرصها عليه وعلى طفلتهما.. ففكر فى الأمر طويلاً وذهب لـمقابلة رئيسها.. وعاد بعد أيام يبشرها لأنـها تستطيع الـحصول على إجازة دون راتب لعدة سنوات أخـرى إذا هى عـادت للعمل مدة شهرين، ورجعت لعملها بصفة مؤقتة.. وحرص خلال هذه الفترة على أن يصطحبها إلى عملها فى الصباح فى سيارته الصغيرة القديمـة التى اشتراهـا بميراثه عن أبيه، ويعود فى الظهر لإعادتـها إلى البيت قبل موعد عودة الصغيرة من مدرسة الـحضانة.. وقدرت له كثيرًا حرصه على ألا يـحرمها من تأمين مستقبلها بمعاشها من الوظيفة الـحكومية، وتـحملت شهرى العمل بصبر إلى أن نجح فى الـحصول لـها على إجازة جديدة. وعادت إلى طبيعة حياتها الوادعة من جديد. وتواصلت الأيام جـميلة

هانئـة، وفى أيـام العطلات يصطحبها مع طفلتها بسيارته الصغيرة إلى زيارة شقيقه الأكـبر فى القرية القريبة من القاهرة ليقضيا الأيـام الـمشمسة فى بيته الريفى الـهادئ، وتستمتع هدى بالـجرى فى حديقته أو يصطحبها إلى وسط الـمدينة فيدخلان مع طفلتهما حفلة السينما الصباحية التى تعرض أفلامًا خاصة للأطفال.. ويتناولان الغداء فى نادى الشركة التى يعمل بـها.. أو يذهبان معًا لتناول الغداء فى بيت أسرتـها التى حظى زوجها لديـها بمكانة رفيعة لطيبته وأمانته ورقته فى معاملة زوجته. أما فى الصيف فقد كانت إجازته عيدًا سنويًا تتلهف هى على انتظاره وتستعد لـه استعدادًا كاملاً.. وحـين يـحين موعد الإجـازة ينهضان فى الفجر من نومهما ويوقظان الصغيرة.. ينقلان حقائب السفر إلى السيارة القديمة.. ثم تتحرك السيارة فى طريقـها إلى مصيف الشركة التى يعمل بـها والصبح لـم يطلع على الدنيا بعد.. وعـلى رمال الشاطئ يقضيان أسبوعين ليسا من حساب العمر! ثم يعودان بعد انتهاء الإجـازة إلى حياتهما مزهوين ببشرتهما النحاسية الـجديدة ودماء الشباب التى جددتـها الإجازة على شاطئ البحر ويتعجبان طويلاً للون بشرة طفلتهما الذى تـحول إلى السواد الداكن بفعل أشعة الشمس الحارقة.

وقبل العودة لابد أن يتوقف فى أسواق المدينة الساحلية ويشترى

لـها فستانًا جديدًا أو حذاء.. أو بلـوزة ملونة أنيـقة ويسمى ما يشتريـه لـها "تـذكار الصيف".. ويتذكر حين يراها ترتديه فيها بعد بأن هذا تذكار 88 وهذا تذكار 89 وهكذا..

وفى طريق العودة يضع فى كاسيت السيارة أغانى عبد الـحليم حافظ الـجميلة التى يـحبها وأحبتها معه.. ويسمعها منتشيًا ويترنم ببعض مقاطعها ويدمع أحيانًا لأنغامها الـحزينة.. فتوقفها على الفور وتضع بدلاً منها تسجيلاً لـمسرحية فكاهية.. فيضحك لـها على الفور من قلبه وندى الدمع مازال فى عينيه.

نعم كانت الأيام جميلة.. والسعادة حقيقية.. والحب واحة للقلب الوحيد، فكيف يا رب ضاع كل شىء فى غمضة عين؟ غمضة عين حقيقة لا مجازًا.. فلقد كانا عائدين من رحلة الصيف واستسلمت الصغيرة للنوم فى المقعد الخلفى على الفور.. وقاومت هى الإرهاق ورغبة النوم لتظل مستيقظة بجانب زوجها الذى يحب دائمًـا أن يكون الجالس إلى جواره فى رحلة السفر متنبهًا يبادله الحديث حتى لا تسرى إليه عدوى النوم، لكنه لاحظ عليها نعاسها وعجزها عن مقاومته، فاقترح عليها أن ترجع إلى المقعد الخلفى للسيارة، وأن تستسلم للنوم إلى جوار طفلتها حتى نهاية الرحلة، وحاولت الاعتذار عن ذلك لكنه ألح عليها أن تفعل، وأكد لها أنه سيتسلى بسماع المسرحية الفكاهية

طوال الطريق.. وتوقف بالسيارة فانتقلت للمقعد الخلفى واحتضنت صغيرتها وتحرك بالسيارة ببطء فاستسلمت بعد لحظات لخدر النوم وراحت فى سبات عميق.. كم من الوقت نامت؟ لا تعرف.. لكن ليس طويلاً بكل تأكيد فقد استيقظت بعد قليل على هزة عنيفة طوَّحتها وطفلتها للأمام بعنف مع صوت ارتطام مخيف فصرخت فى هلع.. وازداد هلعها حين رأت مقدمة السيارة مهشمة ومتداخلة مع جذع شجرة ضخمة من أشجار الطريق وزوجها ملقى على مقعد السيارة وهو ينزف ويتأوه وتعالى صراخها فجاءها صوته بطيئًا خافتًا يقول: لها لا تخافى.. لا تخافى.. لم يحدث شىء.. لكن "الشىء" كان قد حدث للأسف وقضى الأمر.. وفعل نزيف المخ الداخلى فعله الأثيم تحت السطح الهادىء دون أن يدرى أحد رغم نجاتها وطفلتها من كل أثر سوى خدوش بسيطة.. وفشلت كل المحاولات لإنقاذ زوجها الحبيب من المصير المحتوم، وخلت شقة الحب من ابتسامته الصافية وصوته الضاحك ومناوشاته الجميلة.. واكفهر وجه الحياة فجأة فى العش الصغير وتغير كل شىء فيه. حتى نظامه فانتقلت الصغيرة من غرفتها لتتقاسم الفراش مع أمها كل ليلة لتسعفها وتحتضنها مهدئة ومطمئنة حين تباغتها من حين لآخر نوبة الفزع والبكاء المفاجئة أثناء النوم. وطويت "تذكارات الصيف" الجميلة الملونة ونزعت من مكانها فى دولاب الملابس

إلى حقيبة كبيرة تحت الفراش.. ليتسع الدولاب لملابس أخرى.. سوداء كئيبة.. ولم يعد الصباح يشهد برنامجه الجميل فى الأيام السعيدة، فلم يعد هناك من يهزها برفق وهو مستغرق فى النوم لتصحو ويبقى هو نائمًا بعض الوقت، وتعود إليه بعد خروج الصغيرة للمدرسة لتناكفه ويناكفها.. حتى يغادر فراشه ويدخل إلى الحمام ثم يخرج منه وسيمًا جميلاً معطرًا ويحييها تحية الصباح القديمة التى أحبتها: صباح الخير يا جميل!

ولم يعد هناك من يشرب معها شاى الصباح، ويشاكسها ويطاردها حول مائدة الطعام معظم الأيام. لم يعد هناك شىء من ذلك.. فلم يبق إلا الصمت الحزين والكآبة. ولن تبقى لها حاجة أيضًا إلى صوت المنبه ليوقظها من نومها فلقد أصبحت تتنبه من نومها وحدها قبل الموعد المحدد بدقائق وأحيانًا بساعات رغم الإجهاد والمعاناة والمهدئات التى تتناولها قبل النوم!

وحين تبلغ الساعة السادسة أصبحت هى التى تمد يدها إلى من تشاركها الفراش لتهزها برفق وتدعوها للنهوض فتنهض للعجب بلا مقاومة.. وتستسلم لتصفيف شعرها بلا بكاء وتشرب اللبن دون اعتراض.. كأنها استشعرت بحسها الغريزى أن الظروف لم تعد تسمح لها بالدلال أو بإضافة عناء جديد إلى معاناة أمها كثيرة البكاء! وبعد

اصطحابها إلى سيارة المدرسة لم تعد ترجع لبيتها كما كانت تفعل، وإنما تذهب إلى عملها القديم الذى عادت إليه لتواجه بدخلها منه تجهم الحياة بعد رحيل الأعزاء.

ويومًا بعد يوم يتكرر برنامج الصباح الحزين فى رتابة فتصحو قبل الموعد بوقت طويل.. وتتمهل فى إيقاظ طفلتها الصغيرة لتتيح لها أطول وقت ممكن للنوم، وتستسلم هى فى انتظار الموعد لذكرياتها وخواطرها الحزينة.. وتسيل دموعها فى صمت وفى مرات ليست قليلة تتشابك لديها الذكريات السعيدة الماضية مع هواجس الحاضر ومعاناة أيامه الكئيبة.. فتضعف مقاومتها فجأة وتستسلم لنوبة بكاء قاهرة تحاول بكل جهدها أن تتكتمها حتى لا توقظ طفلتها الراقدة إلى جوارها.. فتفاجأ بيدها الصغيرة تربت على كتفها بحنان وبصوتها يقول لها فى عطف خفى كأنها تتفهم عمق أحزانها:

ـ معلش يا ماما!

يا إلهى.. طفلة فى الخامسة من عمرها فى بيتنا؟ من يستطيع أن يتفاهم معها ويرعاها ويتحمل شقاوتها ومطالبها، وليس فى بيتنا سوى أم تعدت السبعين وتتناوبها الأمراض، وأعزب مزمن يقترب من السابعة والأربعين مثلى وليس له صبر على عناء تربية الأطفال؟ حتى السيدة التى تساعد أمى فى أعمال البيت بعض الوقت وتقوم بنظافته تقترب من الستين ولا طاقة لها برعاية طفلة صغيرة مثلها، فمن يهتم بأمر هذه الضيفة الصغيرة؟ إنها ليست ضيفة عابرة بل عضو جديد فى أسرتنا التى تخيم الكآبة على حياتها معظم أوقات اليوم.. وإقامتها سوف تطول بيننا إلى غير حدود.. فمن يقدر على رعايتها؟

هكذا قال "نجيب" لنفسه وهو يجلس فى الشرفة يحتسى قهوة الأصيل، ويرقب هذه "الضيفة الجديدة" وهى تجلس فى هدوء غريب على طبيعة الأطفال بجوار أمه العجوز أمام التليفزيون فى صالة السكن القديم بحى المنيرة. أشعل سيجارته الثانية ورشف رشفة أخرى من فنجان القهوة، وعاد يجتر أفكاره فى صمت. بعد قليل سيغادر الشرفة ويرتدى ملابسه.. ويخرج إلى لقاء أصدقائه وسيخلو المسكن على الأم والطفلة من الآن وحتى يعود بعد منتصف الليل فهل تستطيع أمه رعايتها فى غيابه؟ وماذا لو بكت الطفلة من جديد

أو سألت عن أمها وشقيقها وطلبت العودة إلى بيتها كما فعلت منذ دقائق فتحايل عليها بشغلها عن هذا الحديث حتى نسيته؟. إن أمه تنام فى التاسعة كل ليلة.. وتتحرك بصعوبة وهو لا يعود من سهرته إلا بعد منتصف الليل، فيجد المسكن صامتًا موحشًا فيستلقى فى فراشه يقرأ صحيفة الغد التى يعود بها كل ليلة ويسمع الراديو الخافت إلى جوار فراشه بعض الوقت ثم يستسلم للنوم. أيامه متشابهة متكررة يذهب إلى عمله الحكومى فى وزارة الزراعة، ويعود فى الظهر فيتناول غداءه وينام ثم ينهض مع الأصيل ويجلس فى الشرفة بعض الوقت ويذهب إلى أصدقائه فى المساء.

هكذا تمضى حياته منذ سنوات طويلة فى نظام رتيب لا يتغير إلا يوم الجمعة حين يصحو من نومه فيجد المسكن القديم يضج بحياة جديدة مع مجىء أخته "خديجة" وزوجها وطفليهما ومجىء "رشيد" شقيقه الأوسط وطفليه وزوجته الوديعة سماح فيقضون اليوم فى زيارة الأم ويتناولون طعام الغداء فى ضيافتها.

ورغم حبه العميق لشقيقته وشقيقه وارتياحه لزوج خديجة وزوجة رشيد فلقد كانت طبيعة الأعزب المزمن فيه تغلبه فى معظم الأحيان على أمره، فيبتهج لرؤية شقيقيه وأطفالهما وزوجيهما ويمضى معهم بعض الوقت سعيدًا، ثم لا يلبث أن يضيق بصخب الأطفال الذى

لم يعتده فى حياته الهادئة فيفر منه إلى المقهى. وقد يصطحب إليه معه رشيد وزوج خديجة فيخلص للحديث معهما بعض الوقت بعيدًا عن بكاء الأطفال ومنازعاتهم. كان زوج خديجة وهو وكيل نيابة قديم يفهم طبيعته جيدًا ولا يلومه عليها، لكنه يلومه أحيانًا على استسلامه للعزوبية، ويعيب عليه وهو أكبر إخوته أن يتسرب منه العمر بلا زواج ولا إنجاب. أما شقيقته خديجة فعاطفتها العائلية تغمر الجميع بلا استثناء وتخصه هو بحب وعرفان خاصين لتحمله مسئوليتها بعد وفاة أبيهم.. ولم تيأس أبدًا من أمل إقناعه بالزواج ولا تكف عن ترتيب "المصادفات" العائلية التى تتيح له مشاهدة بعض صديقاتها وزميلاتها فى العمل عسى أن يبدى اهتمامًا بإحداهن فتنهض لخطبتها له على الفور!

ولم يكن "نجيب" معرضًا عن الزواج بإرادته.. لكن تجربة زواجه الفاشل فى بداية الثلاثينيات من العمر قد أورثته مرارة صرفته بعض الوقت عن الزواج، وحين استعاد رغبته فيه صادف رفضًا لم يتوقعه من الفتاة التى تمناها فارتد خائبًا.. وتكررت التجربة مع أخرى بعد عامين فعزف عن تكرار المحاولة، وبلغ الأربعين دون أن يتزوج فضاقت أمامه الفرص. وقال لشقيقه رشيد حين حدثه ذات مرة عن الزواج:

ـ من أرغبها ترفضنى وتعيبنى بكبر السن.. ومن تريدنى لا أجد فى نفسى رغبة فيها.. فماذا أفعل؟

وقد ظل سنوات يعتقد أنه "مشكلة الأسرة" الوحيدة حتى انتزع منه رشيد فجأة قصب السبق بمأساته الفاجعة! فقد ماتت زوجته الطيبة سماح بعد مرض عابر لم يطل أيامًا، وتركت وراءها طفلين أكبرهما فى السابعة وأصغرهما فى الخامسة من عمره.. ورحلت الوديعة الهادئة بعد أن بدأت حياتها الجافة بضيق الموارد تترطب بعض الشىء بإعارة زوجها للعمل خبيرًا بإحدى الدول الأفريقية قبل شهور، وفى غيبته عن أسرته الصغيرة مرضت سماح، واستنجدت بشقيق زوجها فنقلها إلى المستشفى وضمت خديجة طفليها إلى بيتها فلم تلبث بالمستشفى سوى أيام.. وانتهت حياتها القصيرة فجأة بلا مقدمات.. ووريت الثرى ورشيد فى غربته فلم يرجع منها إلا بعد انتهاء كل شىء.. وجاء مذهولاً ومتهدمًا لا يصدق نفسه. واجتمعت أسرته بعد انتهاء العزاء فى مسكنه تبحث مصير الطفلين الصغيرين بعد رحيل سماح وكانت يتيمة الأبوين وليس لها سوى شقيقة تعيش فى أقصى الجنوب مع زوجها.

ولم يكن هناك مفر من أن يرجع رشيد إلى مقر عمله بعد أيام ليكمل عامه الأول من الإعارة ثم يسوى أموره هناك ويرجع..

ليواجه مصيره. ولـم يطل التفكير كثيرًا فى مصير الطفـلين، فلقـد عرضت الأم ضمهما إلى بيتها، لكن خديـجة العطوف أشفقت عليها من مؤونة رعايتهما فى حالتها الصحية وشيخوختها، فـأصرت على ضم "وليـد" الطفل الأكبر إلى أسرتـها وأيـدها فى ذلك زوجها الطيب بحماس صادق فوافق نجيب مستريـحًا إلى حكمة القرار.. وجلس رشيد صامتًا يرقب توزيع طفليه بين أفراد أسرته وقلبه يغص بالألـم والـمرارة.

وتم تنفيذ الاتفاق بعد أيام قليلة وانتقل وليد إلى بيت خديجة وجاءت "بسمة" الصغيرة إلى بيت الجدة والعم الأعزب، وسافر رشيد إلى عمله حزينًا تائهًا وبكى بكاء مريرًا فى المطار وهو يعانق شقيقه وزوج شقيقته.

ورجع نجيب بعد توديع شقيقته إلى بيته عند منتصف الليل مكتئبًا فأمضى ليلته مؤرقًا. وفى الصباح تبادل مع أمه كلمات مقتضبة على مائدة الإفطار، سألـها خلالـها عن حال الطفلة فأجابته بأنـها نائمة، وقد بكت طويلاً قبل نومها، وألـحت عليها بالسؤال عن أمها وبرغبتها فى العودة إلى بيتها وشقيقها، فكرر عليها نجيب السؤال مشفقًا: هل تتحملين حقًا رعايتها يا أمى وصحتك ليست على ما يرام؟

فأجابته: وماذا لو لم أكن أتحمل ذلك.. أين تذهب هذه المسكينة؟ فلم يحر جوابًا ورشف شايه بلا استمتاع وخرج إلى عمله مكتئبًا.

وفى الظهر عاد إلى بيته فوجد الطفلة تجلس على أرض الصالة متشاغلة ببناء سور من المكعبات.. وأمه تجلس فى مكانها التقليدى على الأريكة المواجهة للتليفزيون، ولاحظ بسهولة آثار "حركة" الطفلة فى المسكن الخالى فرأى مفرش المائدة متهدلاً فى أحد جوانبه وبعض قطع الورق الصغيرة متناثرة فى الصالة ومقعدًا من مقاعد السفرة منكفئًا على الأرض. فرفع المقعد وأعاده إلى موضعه وسوى مفرش المائدة وجمع قطع الورق من الأرض.. ثم دخل إلى غرفته فبدَّل ملابسه وانضم إلى أمه والضيفة الجديدة فى الصالة استعدادًا للغداء ونظر إلى أمه متسائلاً فى همس وهو يومىء للطفلة: كيف الحال؟

فأجابته هامسة: بكت طويلاً فى الصباح.. ثم تشاغلت بعد ذلك مع "أم سيد" بأعمال البيت وشاركتها كنس الشقة وذهبت معها إلى السوق!

وجاءت أم سيد بأطباق الطعام فتناولت الأسرة غداءها فى صمت.. واستغرق الغداء وقتًا أطول من العادة بسبب تشاغل الأم بإطعام الطفلة ثم رفعت أم سيد الأطباق وغسلتها واستأذنت فى الانصراف وهى ترمق الطفلة وتمصمص شفتيها فى عطف صامت.

ودخل نجيب إلى فراشه مستسلمًا لنوم الظهيرة.. فلم يدر إلا ويد صغيرة تلمس وجهه فى شىء من العنف وصوت بسمة يقول له: عمو.. نينه تقول لك اصح!

ففتح عينيه منزعجًا كأنما لم يعتد يدًا أخرى توقظه من نومه سوى يد أمه.. ونظر إليه الطفلة الواقفة إلى جواره للحظات استرجع خلالها المأساة كلها، فسرى فى قلبه عطف غامر ومفاجئ كأنما يستوعب الموقف للمرة الأولى. وظل يرقبها للحظات صامتًا ثم ابتسم فجأة، ومد يده إليها متظاهرًا بعجزه عن النهوض من الفراش وقال لها: اجذبى يدى لتساعدينى على النهوض وأرينى قوتك!

فتحمست الطفلة للفكرة المثيرة، وأمسكت يده بيديها الصغيرتين وراحت تجذبها بأقصى ما تستطيع من قوة، وهو يتظاهر بالاستجابة تدريجيًا لقوة جذب يديها حتى استوى واقفًا فابتهجت الطفلة وابتسمت، وقال لها وهو يمسك بيدها خارجًا من غرفة نومه: لم أحسبك "قوية" هكذا!

وفى المطبخ صنع قهوته وهى إلى جواره.. وصنع كوبين من عصير الليمون وحمل الصينية إلى الصالة، فقدم كوبًا إلى أمه وأشار للآخر لكى تساعد بسمة على احتسائه.. ثم حمل قهوته إلى مجلسه التقليدى فى الشرفة.. وراح يراقب الطريق شاردًا.. ومن حين إلى آخر ينظر إلى

الصالة فيرى بسمة تجلس إلى جوار أمه "تكافح" مع كوب الليمون وجدتها تراقبها باهتمام خوفًا من انسكاب المشروب على ملابسها حتى انتهت من احتسائه بسلام.. ثم تدلت بسمة من الأريكة ببطء لتضع الكوب بحرص على المائدة ورجعت إلى مـجلسها بجوار الـجدة العجوز على المائدة وراحت تنقل بصرها بين شاشة التليفزيون.. وبين عمها ساهمًا فى الشرفة يفكر فى أمرها وأمر أخيه الـمنكوب.. وأمره هو الـمهموم بما جرى لأسرة شقيقه.. وبسنوات العمر التى مضت بددًا دون أن يتزوج أو ينجب، وكلما التقت عين الطفلة بعينى عمها ابتسمت له ابتسامة خجول لا تـخلو من انكسار غير مفهوم، كأنما تستشعر بطريقة غامضة مأساوية الموقف فيبادلها نجيب ابتسامتها بابتسامة عريضة صادقة يحاول أن يدفع بها عنها وعن نفسه الحزن.. والقلق.. والخوف من المجهول!

ـ هذا هو رأيك النهائى؟

ـ نعم.. النهائى..

ألا تفكرين مرة أخرى؟

ـ فكرت طويلاً ولم أجد مفرًا من ذلك رغم مرارته.

ـ ألا تحبين طفليك كما أحبهما.. ألا تخافين عليهما من المستقبل المجهول؟!

ـ أحبهما وأخاف عليهما أكثر منك.. لكن ذلك لن يجبرنى على قبول مالا أريده لنفسى!

وحملت حقيبتها الصغيرة فى يدها.. وقبلت طفليها ورفضت بإصرار مطلبهما بمصاحبتهما فى "الزيارة" العائلية التى زعمت أنـها ذاهبة إليها، ورفضت عرض زوجها بتوصيلها بالسيارة إلى بيت أبيها.. وغادرت الشقة متماسكة أو متظاهرة بالتماسك.. فخرج إلى الشرفة ليرقبها، وهى تغـادر العمارة.. ورآها تقف فى الطريق فى كبرياء تنتظر سيارة أجرة، وأمل أن ترفع عينيها إلى الشرفة لتودع طفليها، لكنها لـم تفعل وظلت واقفة فى جمود فى مكانـها حتى ركبت سيارة الأجرة وتـحركت بـها.

وعاد حسين إلى داخل الشقة مهمومًا يفكر فيما ينتظر طفليه من عناء.. عنيدة كالبغل.. إذا تسلطت عليها فكرة فهيهات أن ينجح أحد فى إقناعها بعكسها.. وبسبب هذا العناد نفسه أحبها وتمسك بها وبسببه أيضًا تتحطم الآن حياتهما.

كانا زميلين فى الكلية.. تخرجا متفوقين وتمت خطبتهما ودرسا للماجستير فى الهندسة معًا، وعملا فى مكتب أستاذهما الاستشارى وتعلقا بالأمل فى مساعدة أستاذهما لهما للتعيين فى الكلية كمعيدين.. والحصول على الدكتوراه تحت إشرافه.. لكن الأستاذ لسوء الحظ طلق زوجته بعد خلافات دامية معها.. وأبدى اهتمامًا خاصًا بتلميذته الجميلة الذكية، فبدأ ينسج شباكه حولها ويوسوس لها بفسخ خطبتها لهذا الشاب البسيط الذى لا يملك لها شيئًا، ويغريها بما يمكن أن يضيفه إليها زواجها منه.. ستعين معيدة بالكلية.. وستحصل على الماجستير والدكتوراه بمساعدته وستقيم فى شقة فاخرة تطل على النيل.. وستصبح أستاذة جامعية و.. و.. لكنها لم تتأثر بكل هذه الإغراءات وتمسكت بحبيبها المكافح الذى تركب معه الأتوبيس والذى لا يعدها زواجها منه إلا بحياة بسيطة.

وضاق الأستاذ بعناد تلميذته فتحول بضغوطه إلى تلميذه الشاب وحاول إيهامه بأنها ترغب فى فسخ خطبته لتتزوجه، لكنها تتحرج

من نقض عهدها معه إشفاقًا عليه.. ولذلك فمن واجبه أن يضحى بنفسه من أجل سعادتـها التى يـحرمها منها "بأنانيته"! واهتز الشاب أمام ضغوط أسـتاذه.. وساورته الشكوك فى خطيبته لكنه دافع عن حبه باستماتة وصارحها بما يتعرض له من أستاذه وبمخاوفه من اضطهاده لهما.. لكنها هزت كتفيها باستهانة وأبلغته بقرارها بالتـوقف عن العمل فى الـمكتب الاستشارى والتنازل عن حلم العمل كمعيدة، وتركت له حرية اتـخاذ القـرار الـمناسب بشأن عمله ومستقبله، ولـم تضيع وقتًا.. وامتنعت بالفعل عن الذهاب إلى العمل وسعت بمساعدة أبيها للحصول على عمل جديد، وعملت فى مكتب استشارى آخر.. وواصل خطيبها العمل مع أستاذه بنصيحة منها حتى يستطيع الـحصول على الدكتوراه ولكيلا يـخسرا معًا حلمهما دفعة واحدة.. لكن الأستاذ لـم يدع له فرصة للاستمرار وكثرت مضايقاته له فانسحب.. وبعد قليل قبل وظيفة فى إحدى شركات الـمقاولات، وتنازل عن حلم العمل بالـجامعة إلى الأبد.. وتزوجا وسعدا بحياتهما معا وأنجبا طفلين، ومضت بهما سفينة الـحياة.. فتحسنت أحوالهما بكفاح السنين واستقرت فتاة الأحلام فى وظيفة مناسبة وتقدم هو فى عمله.. وغيّر مسكنه واشترى سيارة، وبإرادة من حديد أصرت على أن يكملا دراستهما للماجستير التى توقفت بسبب ضغوط أستاذهما السابق، وحصلا عليه معًا، وبدأ دراسة الدكتوراه تحت إشراف أستاذ

آخر.. وحددت له هدفها فى أن يفتتحا معًا ذات يوم قريب مكتبًا استشاريًا خاصًا بهما، وثقلت أعباؤها العائلية بسبب الطفلين والعمل ودراسة الدكتوراه، فاستعانت بمربية لطفليهما، لكن ذلك لـم يخفف كثيرًا من متاعبها، ففكرت فى الأمر بهدوء كعادتها ثم خرجت عليه بقرارها وهو أن تؤجل دراستها للدكتوراه إلى أن ينتهى منها حبيبها، فيستطيع أن يتفرغ بعض الوقت لرعاية الطفلين ثم تواصل هى دراستها، وحاول أن يقنعها بألا تضيع فرصتها لتحقيق الـحلم القديم رافضًا تضحيتها بأحلامها من أجله، لكن هيهات أن يستطيع أحد أن يغير قرارًا استقرت عليه إرادتـها.. وحثته على مواصلة دراسته وهيأت له الـجو المناسب.. وساعدته فى جـمع مادته العلمية ونسخ ما يـحتاج إليه من معلومات حتى آمن فى أعماقه بأن دورها فى حياته أخطر مما يتصور أحد.. وحين نوقشت رسالته وأعلنت اللجنة الـمختصة فوزه بالدرجة العلمية.. صرخت من الانفعال والابتهاج فلم يتردد فى أن يقبِّل يدها أمام زملائه وأساتذته.. ولولا الحرج لاحتضنها وقبَّلها أمام الجميع عرفانا وحبًا.

وبإصرار من جانبه هو هذه الـمرة قرر تأجيل مشروع الـمكتب الاستشارى إلى أن تنتهى من رسالتها ليستطيع مساعدتـها كما ساعدته وليتوفر له الوقت الكافى لرعاية طفليه وأسرته.. كانت الـحياة تـمضى جـميلة وسعيدة ومعطرة بعبق الـحب والكفاح وتبادل التضحيات..

فكيف تعكر صفوها؟.. وكيف انتهى به الحال واقفًا فى الشرفة يرقب سيارة الأجرة وهى تمضى بها بعيدًا، وطفلاه بجواره يسألانه متى ستعود ماما، وبين لحظة وأخرى سيأتى شقيقها لينقل أثاثها من عش الحب القديم ويطلب منه ببرود تحديد موعد إجراء الطلاق؟ أمها هى السبب الكامن.. لم ترحب به من البداية.. وكرهته بلا سبب سوى أنه شاب بسيط بلا إمكانيات ولامتها كثيرًا لرفضها أستاذها الناجح الثرى وسألتها مستنكرة: كيف ترفض السكن على النيل والسيارة الفارهة.. والملابس الفاخرة.. والسفر إلى أوروبا.. وفيلا المصيف على الساحل الشمالى.. من أجل هذا الشاب "الخائب" لكنها لم تتزحزح عن موقفها.. وتحمل هو صابرًا جفاء أمها وكراهيتها الصامتة له.. وتغاضى عن دسائسها لها ضده حتى بعد أن أنجب طفلين ولم يعد هناك أمل فى تراجع ابنتها. وبسبب إحدى هذه الدسائس نشب أول نزاع جدى بينهما حين شككتها فى إخلاصه لها وشككتها فى طول ساعات غيابه عنها، بينما هى حبيسة بيتها لرعاية أطفاله والإعداد لرسالتها التى أجلتها من أجله، وفى إحدى منازعاتها قالت له بعناد: ضحيت بالكثير من أجلك وأتحمل كل شىء منك إلا شيئًا واحدًا هو الخيانة.. فإذا تأكدت منها لا رد عليها عندى سوى الانفصال.. أنت تعرفنى جيدًا فلا تفقد ثقتى.. وقبَّلها مؤكدًا لها وفاءه، لكن بذرة الشك كانت قد غرست فى قلبها.. كل يوم

تنقل إليها أمها عبر التليفون دسيسة جديدة.. زوجك المحبوب شوهد ومعه فتاة جميلة فى السيارة، وقال زملاؤه إنها زميلته وتركب معه كل يوم ليوصلها إلى بيتها!

وكانت أزمة جديدة انتهت بأن أقسم لها أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى.. زوجك المحبوب حضر عيد ميلاد زميلته الفاتنة مع عدد من الزملاء ولاحظ الجميع ما يجمع بينهما من ود واهتمام! وكانت أزمة أخرى.. ثم تسممت الحياة بالشكوك والظنون وأصبحت فترات الشقاق أطول من فترات الصفاء.. وتجلى عنادها المألوف فى رفضها تصديق مبرراته وحججه، فضاق بكل شىء وثار عليها وردت على ثورته بأعلى منها، وتكررت مصادماتهما حتى أصبحت أمرًا مألوفًا فى حياتهما ولدى الجيران والطفلين.. وفى إحدى هذه المصادمات جرحت كرامته فصفعها، فهجمت عليه كالنمرة تريد أن تنشب فيه أظافرها فردها عنه وغادر البيت ساخطًا.. وعاد فوجدها قد أخرجت بيجامته من غرفة نومها وأغلقت بابها بالمفتاح، ونام ليلته فى حجرة الطفلين.. واستقر الجفاء الصامت بينهما.. واستقلت هى بغرفة النوم وقاطعت مائدته وكل شئونه.. وانتظر أن تمر هذه السحابة كغيرها، لكنها طالت على غير العادة.. ولم تبد زوجته أية إشارة لميلها إلى الصفح أو النسيان، وعاد من عمله بعد الظهر فوجدها جالسة إلى مكتبها الصغير تراجع أوراق

رسالتها.. فاقترب منها برقة وقال لـها: ألـم تنسى ما حدث بعد؟ فرفعت إليه عينيها صامتة ثم قالت: نعم نسيت ولـهذا أريد الطلاق!.

ولـمعرفته بشخصيتها العنيدة وبأنـها لا تلقى الكلام جزافًا خفق قلبه خفقة مؤلـمة.. وقال لـها فزعًا: الطلاق؟ هل جننت.. وحبنا.. وحياتنا وأحلامنا المشتركة وطفلانا؟ فلم تهتز رموشها لما قال ولـم تجب عن تساؤلاته سوى تساؤله عن الطفلين فقالت: سأصطحبهما معى إلى بيت أبى وسأرعاهما وستراهما حين تريد.

فتمسك بآخر أمل لديه فى إيقاظ مشاعرها القديمة وقال لها متظاهرًا بالعناد: لن يحدث هذا أبدًا وأنا على قيد الحياة.. لن يغادر طفلاى بيتى.. فإذا شئت الطلاق فإنى لن أحرمك منه أما الطفلان فشىء آخر.

وتعلق أمله فى تراجعها عن هذا الخراب بالطفلين، لكنها قالت له بثبات وكأنها كانت تعرف مسبقًا بما سيفعل: أنت لن تستطيع رعايتهما وحدك ولا بمساعدة المربية لكنك تريد أن تلوى بهما ذراعى.. وسأريحك وسأدعهما لك لتعرف أننى لن أعيش معك رغمًا عنى من أجل أولادى!.

وحددت له موعـد مغادرتـها للبيت بعد أيـام بأعصاب بـاردة كأنها تتحدث عن شىء عـادى من شئون حياتها اليوميـة..

واضطربت حياتـه اضطرابًا شديـدًا.. وحاول مناقشتها فى قرارها لكنها لـم تتزحزح عنه واستعان بأبيها وشقيقها عليها فباءت جهودهـا بالفشل. ثم حان موعد الفراق.. وانتهت من ترتيب حاجياتـها وهو يتوقع كل لـحظة أن تضعف أو تلين ولكن بلا فائدة.. بلا فائدة.. لـحظة واحدة فقط بدت فيها لـمحة من لـمحات فتاته القديمة وزوجته الـمحبة السابقة حيث غلبته همومه وهى ترتب ملابسها وترفض كل توسلاته فقال لها:

ـ لا يمكن أن يكون عنادك هذا بسبب شكوك فى إخلاصى أو منازعات بيننا.. أو صفعة صفعتها لك فى لحظة غضب.. صحيح يا لغبائى إن المرأة لا تضحى بأطفالها من أجل أسباب كهذه.. لكنها قد تضحى بهم وبحياتها الزوجية أحيانًا من أجل شىء واحد فقط هو رجل آخر!.

نعم هناك رجل آخر.. فكيف غاب عنى هذا السبب "الحقيقى"!.

كانت لـحظتها تضع آخر ملابسها فى حقيبتها فرفعت إليه رأسها بعصبية شديدة.. وهمت بالتحرك إليه كأنها تريد أن تنشب فيه أظافرها كما أرادت أن تفعل فى مرة سابقة.. وتضرج وجهها بالاحمرار والانفعال الغاضب وفتحت فمها لتتحدث. ولكنها استعادت هدوءها بغتة، ونظرت إليه فى ازدراء صامت وأغلقت حقيبتها!.

فنظر إليها مذهولاً.. وسألها: ماذا كنت تريدين أن تقولى؟ فرفعت حقيبتها والتفتت إليه قائلة: كنت أريد أن أقول لك شيئًا.. لكنى غيرت رأيى لأنك لا تستحقه!

ثم تحركت فى اتجاه الباب.

واستعاد هذا المشهد طويلاً وهو يقف فى الشرفة يطل على الشارع المزدحم الذى اختفت منه سيارة الأجرة وتركز عليه أمله.. لقد ضعفت للمرة الأولى منذ نشب هذا النزاع السخيف حين اتهمها بعدم الإخلاص للحب.. وكادت تسبه وتلعنه وتذكره بأنه الحب الوحيد فى حياتها.. لكن كبرياءها وعنادها حالا بينها وبين ذلك.

لقد كانت أول لحظة ضعف تبديها منذ فسدت الحياة بينهما فى الأسابيع الأخيرة.. والضعف دليل أكيد على أن الحب لم يمت ومازال يدب فيه نبض الحياة.

نعم.. نعم.. لم يمت الحب ولن يموت لكنها عاصفة شديدة من عواصف الشتاء لن تلبث أن تنتهى مهما اشتدت قسوتها.. ولهذا فلن يطلقها.. ولن يلوى ذراعها وسيذهب إليها ليعيد إليها طفليها بل ويرجوها أن تعود إلى بيتها، ولتعيش مع طفليها على أن يرحل هو عنه ويعيش مع والديه إلى أن تهدأ النفوس.. وحتى لو تمسكت بالطلاق فسوف يفعل ويرجوها ألا تغادر بيتها واثقًا من أن نبض

الـحب سوف يستعيد عافيته وفتوته السابقة مع تباعد ذكرى الشقاق.. وهدوء الأحوال.

وانفلت عائدًا من الشرفة فقال لطفليه منفعلاً ارتديا ملابسكما بسرعة سنخرج للذهاب إلى ماما فى بيت جدكما!.

وصاح الطفلان بابتهاج فشاركهما بهجتهما وهو يخفى دمعة ساخنة تسربت من عينه رغمًا عنه!.

كان جالسًا فى مقعده الـمريح أمام التليفزيون بعد تناول الغداء يشرب الشاى ويدخن ويتابع الـحلقة الأجنبية باهتمام متقطع.. يعيش مع أحداثها الـمثيرة لـحظات ثم يغيب عنها بذهنه لحظات أخرى قبل أن يعود لـمتابعتها. على مسافة ليست قريبة منه جلست زوجته تتابع أحداث نفس الـحلقة وهى ترشف الشاى فى صمت. وبين الـمقعدين جلس على الأرض ولد فى الثامنة من عمره وبنت فى السادسة يتلهيان ببناء سور من المكعبات الصغيرة ويتبادلان الـحديث الـخافت بين حين وآخر.

استراحة قصـيرة من عنـاء الـحياة تعقب الغداء اعتـادا عليها منذ أيـام زواجهما الأولى.. ولكن شـتان بـين هذه الـجلسة الصامتـة وجلستهما فى تلك الأيـام البعيدة.

كانت أيام البهجة والاستمتاع بكل كلمة أو إشارة.. وكانت العيون ضاحكة والشفاه باسمة.. والأجسام والأنفاس متقاربة.. ومن حين لآخر تميل عليه وتهمس له بكلمة تلمع لها عيناه.. أو يميل هو عليها ويهمس لها بكلمة تشيع السرور فى ملامح وجهها. ولم يكونا عاشقين لكنهما كانا راغبين فى السعادة والاستمتاع بالحياة.. ويبذلان كل جهدهما لتحويل زواجهما التقليدى إلى زواج متوهج بالحب والعاطفة.

التقيا فى حفل زواج صديق مشترك لأسرتيهما. أشار صديقه وهو إلى جوار عروسه ناحيتها وقال له باسمًا: لا تدعها تفلت منك فهى عروس ممتازة لك.. جميلة ورقيقة ومتزنة وأسرتها طيبة، فتابعها بعينيه طوال السهرة ووقعت من نفسه موقعًا طيبًا.. وبين فقرات الحفل صعد إلى صديقه فى "الكوشة" وطلب منه أن يساعده فى التعرف عليها فلم يتردد، واستبقاه إلى جواره وأشار لأخته أن تستدعيها فجاءت باسمة وقدمها إليه بكلمات طيبة وغمز لصديقه بعينيه كأنما يقول له: الباقى بعد ذلك يتوقف على شطارتك!.. فلم يضيع الفرصة وافتعل حديثًا طويلاً معها عرف منه عملها، ونوَّه خلاله أيضًا عن عمله وأسرته واستمعت إليه بلا ضيق، ثم استأذنت منه وعادت لصحبتها تاركة فى نفسه أثرًا جميلاً. قال له الأصدقاء مرارًا إنه لن يتزوج إلا بهذه الطريقة التقليدية فسلم بحكمتهم بعد مقاومة طويلة.

كان يريد أن يلتقى بفتاة لا يعرفها فينجذب إليها.. وينشغل بها ثم يصارحها بحبه وتفاتحة بمشاعرها ويختلسان اللقاء والأحاديث التليفونية الطويلة، وينامان كل ليلة وصوت الآخر وصورته فى مخيلته. ثم تعترض قصتهما العقبات فيتقدم لخطبتها شخص ممتاز من كل الجوانب وترحب به أسرتها، لكنها ترفضه إيثارًا لحبيبها وتهرع إليه جازعة وتسأله: ماذا سنفعل، إننى لا أستطيع أن أتخيل نفسى زوجة لأحد غيرك؟ فيقول لها منفعلاً، إنه لن يتنازل

أبدًا عن حلمه فى الزواج منها ولو حارب الدنيا بأسرها من أجلها! ثم يذهب من فوره إلى أبيها ويطلب يدها، فيعتذر الأب لارتباطه مع آخر، لكنه يتوسل إليه ألا يحطم قلبين يتطلعان للسعادة معًا، ويستشهد على صدقه بابنته فتجىء إلى مجلسهما بالصالون وتحسم الموقف، وتعلن بشجاعة أمام أبيها أنها تحبه ولن تتزوج سواه فيستشيط الأب غضبًا ويرفض هذا العبث ويحرم عليه رؤيتها أو الاتصال بها، لكنه يلين بعد حين ويغلب الحكمة على الغضب خاصة أن ابنته تذبل وتنزوى حزنًا فيستدعيها أبوها ويبشرها بموافقته على زواجها منه بالرغم من أن إمكاناته المادية أقل كثيرًا من الآخر ويتزوجان ويعيشان قصة حب لا تنتهى.

فات أوان الأحلام.. بعد أن ضيَّع الحب الحقيقى من يديه بتقاعسه عن التمسك به والكفاح للارتباط بفتاة القلب التى أحبها فى الجامعة. كانت ظروفه غير مواتية وهى متعجلة فلم تصبر طويلاً، ولم يقاتل هو لإقناعها بالمقاومة والصبر فتزوجت وشغلته الحياة حتى بلغ الخامسة والثلاثين ولم يلتق بمن يحبها مرة أخرى ويحقق معها أحلامه، عرف أخريات لكن القلب لم يضعف أمام إحداهن.. فسلم برأى الأصدقاء فى عدم انتظار الحب، وراح يلبى كل دعوة عائلية واجتماعية باحثًا عن شريكة حياة بالطريقة المألوفة. وأعجبته فتيات فلم يجد لديهن استجابة. ورحبت به فتيات لم يشعر تجاههن بميل إلى

أن حضر زفاف صديقه ورأى هذه الفتاة فيه ومال إليها وأحس بعدم نفورها منه. وفى اليوم التالى زار صديقه حاملاً هدية مناسبة ومهنئًا فوجدها عنده لنفس الغرض فواصل اقترابه منها.. وتلقى إشارات مطمئنة من صديقه فتشجع وتقدم بعد أيام لخطبتها ومضت الإجراءات فى طريقها المرسوم.

كانت مثله قد رست على شاطىء الواقعية قبل عدة شهور ويئست من انتظار الحب وسلمت بضرورة الزواج من إنسان تحس بأى درجة للميل إليه وعدم النفور منه.

فات أوان الحب أيضًا فى حياتها وتراجعت ذكرياته الجميلة. فى الجامعة عرفته ولفت انتباهها بوسامته ومرحه وشخصيته الجذابة فخفق له قلبها للمرة الأولى فى حياتها، رأته محاطًا دائمًا باهتمام الزميلات.. فتوارت فى الصفوف الخلفية يائسة من لفت انتباهه.. تنبه إلى نظرتها الناطقة بالحب وخصها بالاهتمام فأحست له بامتنان شديد. لم تلتفت إلى تحذيرات زميلاتها من ميله الواضح لتجميع القلوب حوله فانهدمت حصونها أمامه وأحبته بلا مقاومة.. وتغاضت عن خياناته ونزواته آملة أن تستقر سفينته فى مرفئها وحدها فى النهاية.. أعانها على الأمل فى ذلك ما أبداه دائمًا من حرص غريب على ألا يفقدها رغم شروده أحيانًا مع الأخريات، فآمنت فى

قرارة نفسها بأنه إنما يعبث معهن "ويـجدّ" معها وحدها! لكن السنوات مضت وتـخرجا فى الـجامعة دون أن يتقدم خطوة واحدة فى الطريق الـجاد.. وعملا فلم يتقدم خطوة جديدة وصارحته بما تعانيه من أهلها لرفضها من يتقدمون إليها، فنصحها بفتور بأن تقبل ما تراه فى مصلحتها، لأن طريقه لا يزال طويلاً ثم غاب عن ناظريـها فترة.. وعاد ليودعها قبل هجرته للخارج متمنيًا لها السعادة فى حياتها! رغم الآلام لـم تكرهه.. حنقت عليه.. اغتاظت منه.. اتهمته بعدم تقدير مشاعرها، لكنها أبدًا لـم تكرهه وربما التمست له العذر أحيانًا فى ظروفه غير الـملائمة.. ولعامين طويلين روادتـها أحلام غامضة بأنه سيعود بطريقة ما ويكمل معها القصة الناقصة. لكن الأيام مضت دون أن يراسلها مرة أخرى أو يفتح لـها أى باب للأمل.. سلمت فى النهاية باختناق الحلم.. وأعلنت لأسرتها موافقتها على الزواج ممن يتقدم إليها إذا كان ملائمًـا. وبعد عام من ذلك تقدم إليها زوجها ووجدت فيه أقرب الصور إلى ما تخيلته فى شريك حياتها فرحبت به بلا تحفظ.

وكانت البداية مبشرة وواعدة بتحقيق الـحلم فى أن تنسج العشرة خيوط الـحب الـمفقود.. وهو لطيف وصادق الرغبة فى الاستقرار مثلها وهى متزنة وهادئة، فلم تبق إلا شرارة الـحب لتكتمل السعادة.. وفى أيام الزواج الأولى بدا لكل من يراهما أنهما عاشقان

يتبادلان أنخاب الحب كل لحظة. لكن بعد مجيء الطفلين ظهرت على السطح الخلافات المألوفة والمشاحنات التقليدية، فلم ينزعجا لذلك واعتبراه من سنة الحياة ثم كثرت وتوالت، واكتشف كل منهما تصلب الآخر وعناده، واعتادا عقب كل خلاف أن يتجنب كل منهما الآخر لفترة طويلة يخيم خلالها الجفاء بينهما ويستقر الصمت. ربما لا يسيء أحدهما للآخر بكلمة جارحة ولا يفكر فى هدم عشه معه.. ولم يهجر أحدهما البيت غاضبًا، لكنه أيضًا لا يبدأ بالاقتراب من الآخر ولا يحاول استرضاءه بكلمة رقيقة أو بلمسة حب، فتطول فترات القطيعة الصامتة بينهما لأتفه الأسباب ويستقر الجفاء. وفى هذه الفترات الكئيبة يستسلم كل منهما لفكرة عجيبة تبدو له كالحلم الذى يتخفى به عن الآخرين فيقول لنفسه: لو كان الحب طائرًا يغرد فى عشنا لما كانت هكذا حياتنا.. ولما استغرقت فترات الجفاء الصامت معظم أوقاتنا. ربما تصايحنا.. ربما تبادلنا الإهانات الجارحة فى بعض الأحيان.. بل ربما تضاربنا ومزق كل منا ملابس الآخر فى قمة الانفعال، لكن قطيعتنا رغم ذلك لم تكن لتطول ولم نكن لنصبر عليها.

فمع أول بادرة للاستعداد للنسيان كان أحدنا يسارع إلى احتواء الآخر فى صدره باكيًا ومعتذرًا ولاثما اليد والثغر والرأس.. ثم يكون الصفاء شهيًا كالعسل بعد الخصام. وحين يصل كل منهما فى أفكاره إلى

هذا الحد فإنه رغمًا عنه.. رغمًا عنه تقفز صورة الـحب القديم إلى مـخيلته فيتخيل لو كان هو أو هى شريك حياته الآن، ويسلم بينه وبين نفسه بأنه لو كان كذلك لبادر هو بالاقتراب ولثم اليد وتقبيل الخد اعتذارًا وحبًا. وليس نادرًا فى مثل هذه اللحظات أن يختلس أحدهما النظر إلى الآخر فى جلسة بعد الغداء، ويتأمل وجهه المقطب الصامت خفية ويتساءل فى باطنه:

ترى ماذا يحدث لو كانت "الأفكار" تتراءى أمام أنظار الآخرين كما تتراءى أمامنا الآن مشاهد هذه الحلقة الأجنبية؟.

تردد بعض الوقت فى قبول دعوة زميله لحضور احتفاله بعيد زواجه الثالث لسطحية علاقته به.. ولارتباطه أيضًا بموعد مقدس كل مساء لا يتخلف عنه، لكن شيئًا ما دفعه للاستجابة فى اللحظة الأخيرة.. توجه إلى بيت الزميل حاملاً علبة التورتة وتوافد الزملاء وزوجاتهم فساد المكان جو المرح، تعزى ببهجة الحفل قليلاً عن افتقاده لسهرته اليومية مع رفاق المقهى وسهرة لعب الورق التى تليها فى بيت أحدهم. ليل الأعزب الوحيد سجن تفتل قضبانه من خيوط السأم والوحدة وفقدان الرفيق.

أصدقاء المقهى.. أصدقاء وليسوا أصدقاء فى نفس الوقت، عرف الطريق إليهم حين نقل إلى الإسكندرية من القاهرة منذ سنوات وضاق بوحدته فيها.. قدمه لهم زميل له بالعمل فانضم إلى الشلة متلهفًا على اكتساب الصداقات.. واكتشف بعد قليل أنهم يتسللون من المقهى فى التاسعة بأعذار مختلفة، وهم يتهامسون أو يتبادلون الإشارات المبهمة. سأل زميله فعرف منه أنهم يتجمعون فى المقهى من السابعة حتى التاسعة مساء ثم يتسلل خمسة أو ستة منهم إلى بيت أحدهم، فيبدأون سهرة أخرى مع الورق تمتد حتى

الفجر. الورق رفيق الوحدة والسأم وشريك من لا شريك له فى الحياة. رحب بالانضمام إليهم واكتشف بعد أن اندمج فى حلقتهم شخصيات أخرى لهم لا تتكشف إلا على مائدة اللعب. ميولهم العدوانية وغرائزهم البدائية تنطلق على سجيتها مع الاندماج فى اللعب فتعبر عن نفسها بلا ادعاء.. عرف بينهم الكاذب.. والمخادع.. وحاد الطباع الذى لا يحتمل الخسارة فاندمج فيهم غير نادم على تدهوره! يبدأون السهرة مهذبين باسمين يتبادلون المجاملات، فإذا اندمجوا فى السباق المحموم نسوا كل الاعتبارات وشغلوا بمعركة الدفاع عن النفس وإثارة اللعب حتى يفيقوا مع اقتراب الفجر، فينهضوا تالفى الأعصاب شبه متخاصمين لا يكلم أحدهم الآخر! يلتقون فى مساء اليوم التالى بالمقهى فتعود إليهم ابتساماتهم ومجاملاتهم وكأن شيئًا لم يكن! عرف قانون اللعبة بالممارسة فاحترمه وحاول أن يتواءم معه رغم نفوره الباطنى منه، إذ لا بديل لذلك إلا السأم والوحدة فى ليل الأعزب المزمن. فاتت فرص الارتباط وضاعت فتخطى الأربعين بعام ولم يبق له إلا الحسرة والتوحد فى الذات. دنيا الأعزب المزمن نفسه وحدودها شخصه ولا عجب؛ إذ كيف يهتم بالآخرين من لا يهتم به أحد سواه؟ قالت له فتاته وهى فى نهاية سنوات الدراسة الجامعية: لم تبق إلا أيام ونتخرج فعدنى أن تتقدم لأخى بعد الامتحان وسأذلل لك كل الصعاب..

ولا تخش عقبات البداية فهكذا يتزوج كل الشباب! فتردد أمام خطوة البداية والتمس لنفسه العذر عن جبنه فى ضعف إمكانياته وثراء أخيها.

انتظرته بعد التخرج عامين طويلين وألحت عليه أن يتقدم قبل أن يفوت الأوان فتعثر فى تردده وعجزه حتى أفاق على خبر ارتباطها بآخر وزواجها منه! لسنوات طويلة اتهم نفسه بالجبن والعجز وأقسم لنفسه ألا يتردد من جديد إذا صادف الحب الحقيقى فى حياته مرة أخرى. فمضت السنوات.. ولم يظهر فى الأفق بشير له.

تعرف بأخرى.. وأخرى فما استطاع أن يقنع نفسه بإحداهن ولا اقتنعت به أو أحبته واحدة مثلما أحبته فتاته القديمة.

انزلقت قدمه إلى مائدة اللعب فأحرق عليها ساعات ليله بلا حساب واكتسب شيئًا فشيئًا طباع المقامرين. يتهمونه فى الشلة بالجرأة والمغامرة فى اللعب.. فيبتسم باطنه فى حسرة وهو يتذكر تردده أمام السعادة وعجزه عن نيلها!.

تقدم فى عمله رغم سهر الليل الطويل واستقرت أحواله المادية فامتلك الشقة والسيارة ورصيدًا كافيًا لبداية مشروع الزواج.. لكن أين فتاة القلب التى تسكن العش الخالى.. وماذا يفيد أن تبنى بيتًا لا يجد سكانه؟.

فى حمأة اللعب قد تفلت الحكمة من بعض الأفواه فنصحه أحد رفاقه بنسيان حلم الحب والإقدام على الزواج بالطريقة التقليدية.. وقال له آخر: هاأنت ترانا جميعًا متزوجين.. ومهما كانت مساوئنا وأخطاؤنا فنحن نعود آخر الليل إلى بيوت تدفئها أنفاس الزوجات والأبناء الذين نتحمل مسئولياتنا عنهم.. وتعود أنت إلى بيت بارد موحش لتنتظر موعد اللعب التالى، وتصاب باكتئاب شديد إذا عرقل اجتماعنا شىء.. وتلح علينا كل ليلة بل وتتوسل لنا لأن نطيل اللعب ساعة أخرى فلا نستجيب لك فلماذا لا تتزوج كما يتزوج الناس.. أحببت أو لم تحب.. وأنت الفائز فى كل الأحوال.. فحتى هموم الزواج ومشاكله أرحم كثيرًا من وحدتك بين جدران الليل.

سلم بحكمة النصيحة وقرر الأخذ بها وسأل رفاق اللعب أن يرشحوا من يرونها ملائمة له.. فرشحه بعضهم لقريباته.. والتقى بكل منهن فى زيارة عائلية فلم يحالفه التوفيق مع إحداهن.

اعترف لنفسه بأنه قد ضحى بسهرة اللعب هذه الليلة جريًا وراء الأمل الغامض فى الالتقاء بمن تخلصه من وحدته فى سهرة عائلية مماثلة.. فترى أين هى وسط زحام هؤلاء المدعوين؟ تأمل الحاضرين فى بيت زميله، وتساءل ترى متى كانت آخر مرة شارك فيها فى مناسبة عائلية كهذه المناسبة؟ فرَّقت ظروف الحياة بينه وبين أصدقائه

القدامى.. وباعدت غربة المكان بينه وبين إخوته وأسرته.. فلم يعد يلتقى بهم إلا فى المناسبات القليلة.

وبين زحام الحاضرين لفتت نظره بوجهها المريح وملامحها التى توحى بالأمان فتساءل فى باطنه.. ترى من تكون؟ وتأمل المدعوين ليحاول اكتشاف علاقتها بأحدهم فلم يلحظ ارتباطها بأحد. لاحظ طبيعة تصرفاتها فأيقن أنها تنتمى لصاحب الحفل أو لزوجته. وبينما كان مشغولاً بها فوجىء بها أمامه تحمل إليه طبق الجاتوه فتناوله شاكرًا وباسمًـا، وقال لها على الفور إنه يحس بأنها "صاحبة بيت" وليست ضيفة فهل له أن يتجرأ ويطلب منها كوبًا من الشاى؟ وأجابته بابتسامة ترحيب وعادت إليه بعد قليل بالشاى فشكرها بحرارة آملاً أن تكون خالية القلب!.

سأل عنها زميله خلال الحفل فأجابه وهو يتطلع إليه مستفهمًـا عن سر اهتمامه بأنها شقيقة زوجته، فأمضى السهرة مركزًا عينيه عليها وكلما التقت عيناها بعينيه ابتسم لها فى ثبات ورجاء!.

فى اليوم التالى توجه إلى مكتب زميله فى الصباح ليشرب معه القهوة، وأدار الحديث عامدًا عن حفل الأمس إلى أن وصل إلى هدفه وسأله عن شقيقة زوجته.. فعرف منه أنها ليست مخطوبة ولا مرتبطة وإنما مطلقة منذ عام واحد بعد زواج استمر 8 سنوات بسبب عدم الإنجاب!.

اهتز قليلاً حين سمع بمشكلتها مع الإنجاب.. لكنه لـم يتراجع وإنما طلب من زميله أن يرتب له زيارة عائلية يلتقى بـها خلالـها لـمزيد من الاقتراب والتقى بها فى بيت زميله ولـم يخف نيته عليها.. فأبدت تـجاوبًا معه وحدثها طويلاً عن حياته ووحدته.. وسألـها أن تحكى له عن حياتها فروت له باختصار عن سعادتها الـمنهارة.. وانهيار زواجها بعد 8 سنوات بسبب استجابة زوجها السابق لضغط أهله عليه وزواجه من أخرى لينجب منها.. وروت له عن موافقتها راغمة على الاستمرار معه بعد زواجه إلى أن أنجب زوجها طفلاً من زوجته الـجديدة وشغل بهما عنها تمامًا.. ثم استجاب لضغط زوجته الـجديدة عليه.. فطلقها ووجدت نفسها مطلقة وحيدة فى الثانية والثلاثين من العمر، وعادت لتقيم مع أمها بعد أن تزوجت شقيقتها وشقيقاها. تـذهب إلى عملها صباحًا وتعـود لتمضى يومها بين جدران بيتها ومشكلتها هى الليل! فأمها تنام فى الثامنة مساء على الأكثر.. وتبقى هى وحيدة ساعات الـمساء الطويلة تشاهد التليفزيون وتقرأ وتتقلب فى فراشها حتى الثانية أو الثالثة صباحًا.. ساعات الليل طويلة وموحشة وجافة.. ولا شىء يبلل من جفافها أحيانًا إلا دموعها الصامتة حين تستسلم للضعف ومرارة الذكريات.

وسألها واجلاً: هل مازلت تحبينه؟

وأجابته صادقة: أكذب لو قلت لك إنى أكرهه.. لكن مرارة القلب أقوى من كل المشاعر!.

واستراح لإجابتها واعتبرها مدخلاً أمينًا لاكتساب الثقة. وتكرر لقاؤهما فى بيت زميله وازداد اقترابهما.. وسألته بعد قليل: ألا يزعجه حقًا عدم قدرتها على الإنجاب، فأجابها صادقًا بأنه قد تردد قليلاً أمام الأمر حين عرف به، لكنه حسم تردده بالتسليم بفوات أوان الإنجاب أو الأمل فيه وساعدته وحدته المزمنة على تقبل الأمر بروح واقعية. وسعدت بإجابته وأملت أن تدعم روابطهما الأيام.

واستراح إلى اختياره فصارحها بكل شىء عن حياته حتى بإدمانه للعب فى وحدته.. ومخاوفه من ألا يستطيع بعد الزواج أن يمتنع نهائيًا عنه فى بعض الليالى فيتركها لوحدتها مع الليل.. واهتزت أمام الاحتمال لكنها قالت له بعد أيام إنها قد قارنت بين وحدتها الكلية فى بيت أمها ووحدتها الجزئية المحتملة بعد الزواج، وانتهت إلى تفضيلها للارتباط به ووعدته بألا تثير له المتاعب بسبب هذه الآفة بعد الزواج إلى أن يتخلص منها.

وتزوجا وحضر رفاق اللعب زفافه وانصرفوا مبكرين ليلحقوا بموعدهم المقدس متأخرين عنه بعض الشىء إكرامًا لزميلهم!.

وأحس منذ اللحظة الأولى التى اختلى بها فيها بتطلعها الحزين

إلى الاحتماء به من التعاسة فرقَّ قلبه لـها. تفرغ لـها أيام العسل ليلاً ونـهارًا فأنست لصحبته وشغلت حياته باهتمامات جديدة، ضبطته بعد شهر من الزواج ساهمًا فى بداية المساء فقالت له بفطنة: لماذا لا تذهب لرؤية أصدقائك القدامى.. وأمضى أنا هذه الليلة مع أمى!.

وقدر لـها حرصها على إبعاد السأم عنه.. فانطلق مبتهجًا إلى شلته القديمة وقوبل فيها بعاصفة من الترحيب والاتـهام بالـجحود! تكررت الزيارة من حين لآخر ولاحظ عدم ضيقها بـها فرضى عن حياته معها ومضت أيامهما هادئة.

كفت زوجته عن المبيت مع أمها فى الليالى التى يستجيب فيها لنداء اللعب، فأصبحت تـمضى ليلتها فى مسكنها الـخالى تتقلب فى فراشها ولا يسكن لـها جانب إلا حين تـحس به وهو يندس إلى جوارها فى الفراش فتمسك بيده كأنما تطمئن إلى أنـها لـم تعد وحيدة.

وعلى عكس ما أملت من أن تسهم زياراته المتباعدة لرفاق اللعب فى إبعاد السأم عنه حتى يزداد تمسكًا بها، تقاربت مواعيد زيارته لهم حتى كادت تصبح يومية بعد شهور، فطالت وحدتها وأطل العتاب الصامت من عينيها. وبعد عام آخر أصبحت القاعدة هى سهرة الرفاق والاستثناء هو أن يبقى معها.. فاستقر الحزن الصامت فى أعماقها.. ثم نهضت من نومها ذات يوم مفزوعة لحلم كئيب

وتحسست مكانه الخالى فى الفراش بأسى، وأضاءت النور ونظرت فى الساعة فوجدتها الثالثة صباحًا، فأطفأت النور وظلت تحدق فى فراغ الظلام وهى تفكر فى هذا الحلم الغريب الذى يراودها منذ فترة وترى فيه نفسها تهوى من فوق جبل عال.. وتمد يدها إلى زوجها لينقذها.. فلا تجد يده!.

منذ أسابيع وهى تحلم بهذا الحلم.. وترويه لزوجها فيطيب خاطرها. تسلل ضوء الصباح الضعيف إلى الحجرة وتسلل زوجها وأحس بها مستيقظة فنظر إليها محرجًا ومرتبكًا.. وحاول أن يبرر تأخره الشديد هذه الليلة فقاطعته قائلة بصوت خافت: رأيت نفس الحلم مرة أخرى.. ولم أجدك إلى جوارى.. جلال طلقنى!

وانزعج لما قالته وطلب تأجيل مناقشة الأمر إلى اليوم التالى.. وغيرَّ ملابسه وذهب إلى عمله بلا نوم.. وعاد فى الظهر فوجدها تنتظره فى الصالة.. وقد أعدت له طعام الغداء فتناوله على عجل وهو يقاوم النعاس ودخل إلى غرفة النوم فصاحبته إليها.. ورتبت له الفراش فدخل فيه سعيدًا بنسيانها للمطلب المزعج وأمسك بيدها شاكرًا وباسمًا ومعتذرًا فسمعها تقول له:

ـ عفوًا سأغادر البيت بعد نومك.. وسأنتظر فى بيت أمى حتى تتم الإجراءات! وفقد رغبته فى النوم فجأة فانتفض جالسًا فى فراشه وأمسك بيدها وسألها: هل أنت تعيسة معى إلى هذا الحد؟

هل فشلت فى أن يكون لى أى رصيد من حبك.. إننى معترف بخطأ عودتى إلى اللعب.. لكنه لن يكون هناك أمل فى الإصلاح إذا لـم يكن لى أى رصيد لديك من الـحب والرغبة الـمشتركة فى استمرار الـحياة فهل فقـدت كل رصيدى عندك؟. أم أننـى عجزت من البدايـة على أن أفتـح لنفسى حسابًا لديـك! وتطلع إليـها بنظرة رجاء.. فأحنت رأسها متفاديـة نظراته وانسابت دموعها بغزارة وهى تقول له:

ـ أنت رقيق وهادئ الطبع وحنون.. ولا أريد أن يفشل زواجنا لكنى أخاف سجن الليل ولا أريد أن أعانى الوحدة كل ليلة، ولقد فكرت طويلاً فوجدتك بعد أن تسللت إلى قلبى شيئًا فشيئًا.. وأصبحت كل حياتى تعود فتتسرب من بين يدى، وأجد نفسى وحيدة بلا نـهاية مع عـذاب الليل كما كنت فى بيت أمى.. ولـم أحتمل عودة الـمعاناة وأريد أن أوقف القصة قبل أن تفسد حياتنا بالنزاع والشجار.

وأجهشت فى بكاء مرير.. فانتفض من فراشه واقفًا وقد اكتسب قوة مفاجئة غلبت إجهاد السهر.. وراح يتمشى فى غرفة النوم لفترة طويلة مطرقًا يفكر وهى جالسة على حافة الفراش تبكى.. ثم توقف فجأة أمامها وقال لها:

ـ سناء.. ما رأيك فى أن نعيش بضعة أعـوام من حياتنا على ساحل البحر الأحـمر؟ لقد عرضوا علىَّ فى العمل منذ أيـام ترقيتى ونقلى إلى مدينـة الغردقـة. لكنى اعتذرت عن الترقية والنقل ربما ترددًا أمـام مطالبتك بالانتقال من عملك إلى هناك، وربما لكيلا أبتعد عن الإسكندرية ورفـاق السهرة، والآن قـد غـيرَّت رأيى.. وقـررت أن أقبـل الترقيـة والنقـل وتستطيعين بسهولة الانتقال للعمل معـى وسوف تستمتعين بالـحياة هناك فلن يكون فيـها سهر ولا لعب.. ولـن يكون لأحدنا سوى الآخر وسوى استقبال الأهل والأقارب من حـين لآخر فى زيارات مـمتعة فى الاستراحة الواسعة التى سنقيم فيها.. فما رأيك فى هـذا الاقتراح؟

ورفعت إليه رأسها مندهشة ودموعها مازالت تنساب على خديها وظلت ترنو إليه صامتة، فرأى دمعها وهو يجف تدريجيًا حتى توقفت آخر قطرة منه فى عينيها وترددت فى السقوط.. ثم رأى أسارير وجهها تنفرج رويدًا رويدًا وبداية ابتسامة أمل جديدة ترتسم ببطء فوق شفتيها، ثم استسلمت أحاسيسها لداعى الابتهاج.. فاتسعت الابتسامة بالتدريج حتى بشرت بتحولها لدى أى مثير جديد للبهجة إلى ضحكة ارتياح كتلك التى تتسلل للإنسان رغمًـا عنه حين يكتشف فجأة أنه قد نجا من هاوية سحيقة كاد يسقط فيها فراح ينظر إليها مندهشًا ويتخيل حاله لو كان قد هوى إليها بالفعل!.

انصرف زائره من مكتبه مودعًا مضيفه باحترام، فدخل الساعى العجوز ورفع فنجان القهوة الفارغ وكوب الماء من فوق المائدة الصغيرة، ثم ذكَّره بوجود سيدة شابة تنتظر المقابلة، فأشار بيده طالبًا السماح لها بالدخول. أطال الزائر الحديث عن قضيته وهواجسه ومخاوفه من انتصار الخصوم عليه، فكاد ينسى وجود هذه الزائرة التى لم يجئ إلى المكتب هذا المساء إلا لموعدها.

ليست صاحبة قضية جديدة.. ولو كانت كذلك لما حفل بلقائها بهذا الاهتمام.. فهو منذ سنوات أصبح لا يقبل إلا أقل القليل من القضايا التى تثير اهتمامه.. أو تقدم له جديدًا من الخبرة المهنية، وقد لامه صديق عمره على ذلك وهما يتجاذبان الحديث خلال مشوار المشى اليومى فى الصباح الباكر. فأجابه: ولمن أرهق نفسى بعمل لا يعدنى بأية متعة وليس عندى من أجمع له المال.. لا زوجة ولا ولد.. وقد أوشكت موسيقى النهاية أن تعزف ألحانها الحزينة!

نعم.. لم يعد لديه ما يحفزه للعمل لمجرد جمع المال فقد جمع منه ما يكفيه لنهاية كريمة، ومن أجله اختصر رحلة عمله فى القضاء، واستقال وهو فى الخامسة والثلاثين من

عمره، وعمل بالـمحاماة عشرين عامًا حقق خلالـها نجاحًا وشهرة واشترى شقة لـمصيفه بالإسكندرية وسـيارة فارهـة لتنقلاته القليلة، وأثث شقته الـمطلة على النادى بأفخر الأثاث، ولـم يـحرم نفسه من تـحفة رغبها أو متعة بريئـة اشتهاها، ووجـد نفسه وحيـدًا يقـترب من الستين فزهد فجأة فى اللهاث وراء النقود.. ولولا كراهيته للفراغ لأغلق مكتبه وسرَّح وكيـله ومساعده وساعيـه العجوز، لـهذا اختار الـحل الوسط، وبـدأ يعتذر بإصرار عن عدم قبول القضايا الصغيرة وتلك التى لا يستريح إليها عقله أو ضميره.

وبحكمته الـمعروفة عنه اختصر حجم العمل فى مكتبه بحيث لا يزيد كثيرًا عما يـحقق له هدف شغل الفراغ والشعور بالذات وتغطية نفقات الـمكتب وأجور العاملين معه مع هامش ربح بسيط. ونظم حياته بحيث يبدأ يومه بمشوار المشى الصباحى مع صديق عمره الذى تـخرج معه فى يوم واحد من كلية الـحقوق وعمل مثله فى القضاء، لكنه واصل مشواره فيه حتى الآن. ثم يعود إلى مسكنه فيزيل آثار الـمشى الـمجهد تـحت الدش ويتناول إفطاره ويذهب إلى مكتبه أو إلى المحكمة لثلاث ساعات أو أربع على الأكثر، ثم يـخلص بعد ذلك للفراغ والهدوء فى مسكنه وسماع الموسيقى والقراءة ويستقبل أصدقاءه أو يزورهم أو يقضى الأمسية فى مسرح أو يتوجه إلى مبنى التليفزيون ليلبى دعوة للحديث فى برامجه الاجتماعية ويسعد بصدى أحاديثه

الطيب لدى أصدقائه ومعارفه.. فلا يذهب لمكتبه فى المساء إلا لموعد هام أو ضرورى. وقد جاء إلى مكتبه مساء اليوم لارتباطه بهذين الموعدين أو بالأحرى بالموعد الثانى منهما على وجه التحديد مع هذه السيدة الشابة فهى ابنة شقيق صديق عمره المستشار.. وقد عرف تفاصيل قصتها منه خلال مشوار المشى الدائم وإن لم يكن قد رآها من قبل، فعرف منه أنها سيدة شابة وجميلة وفى الثلاثين من عمرها، صادفها سوء الحظ مبكرًا فى حياتها فتزوجت وهى فى عامها الدراسى الأخير بالجامعة من جارها الشاب الذى أحبته منذ صباها فلم يطل زواجها أكثر من سبعة شهور تكشفت لها خلالها هذه التجربة عن محنة كبرى.. وساعد صغر سنها وسن زوجها على اضطرام لهب الخلافات وتنافر الطباع بينهما بسرعة جنونية، فانتهى الأمر بالطلاق وعودتها إلى حياتها مع أمها وشقيقها، وقد تغير فى روحها شىء جوهرى صميم، وبصعوبة شديدة اجتازت محنتها وأنهت دراستها الجامعية.. وساعدها على ذلك أن تجربة زواجها الفاشل لم تثقل كاهلها بطفل تتجدد بسببه المتاعب، وعملت بوساطة عمها المستشار بهيئة دولية تعمل فى مصر بمرتب كبير وحققت فى عملها نجاحًا مشهودًا. لكنها أخفقت على الجبهة الشخصية فى تعويض تعاستها.. فلم تقبل الزواج بعد ذلك أبدًا رغم مشاحنات

أمها وعمها معها واشتعل الـخلاف الأخير حول خاطب جديد لا يمكن لعاقلـة أن تـرفضه.. فاستعانت أمها عليـها بعمها الـذى تـحدث معها طويلاً بلا طائل حتى كاد يسلم باليأس منها لولا بارقة أمل لـمعت فجأة فى الظلام!

فلقد تذكر العم أنـها قد أشارت فى أحاديثها السابقة معه أكثر من مرة إلى إعجابـها بآراء صديقه المحامى الـمعروف فى برامج الأسرة بالتليفزيون فسألها فجأة: هل تقبلين صديقى حكمًـا بينى وبينك؟ وهكذا جـاءت إلى مكتبه هذا المساء!

دخلت إلى غرفة المكتب الوثير فرحب بها واقفًا ومذهولاً فى نفس الوقت. يا ربى إنها "هى" كأنها قد بعثت فجأة من الماضى البعيد ولو لم يكن واثقًا من صحوه لجزم بأنه إنما يراها الآن فى حلم سعيد! هى بكل ملامـحها التى أحبها كثيرًا وتعذب لها أكثر. نفس الوجه الدسم الموحى دائمًـا بإيـحاءات شهية.. نفس الـجسم البض الممتلىء فى غير ترهل كأنه دعوة سافرة للاستمتاع.. نفس العينين الواسعتين الـجميلتين اللتين يغرق فيهما الـمحب بلا أمل فى النجاة، بـل نفس الذقن الـمدبب أيضًا الذى يوحى بقوة الشخصية والعـناد فأيـن من صاحبتها المفر؟ لو لـم يكن يعرف بقرابتها لصديق عمره لظنها أختها أو "ابنتها"، مع أنه لـم يكن لـها أخت ومع أنها لم تنجب كما سمع بذلك منذ سنوات بعيدة.. ترى أين اختفت الآن؟

انتزع نفسه بصعوبة من أفكاره وانفعالاته ورحب بزائرته الجميلة بالكلمات التقليدية.. ثم أعطاها سمعه باهتمام فقالت له:

ـ عفوًا لإرهاقك بمشكلتى لكنى فى حيرة من أمرى، وقد رأيتك فى التليفزيون أكثر من مرة تتحدث عن الحب وشروط الزواج الناجح وأحسست بمدى تفهمك لهذا الموضوع فأردت أن أستفيد برأيك فى مشكلتى.

وشكرها بتواضع ثم حثها على الكلام، وهو يتأملها باهتمام فصارحته بما لم تصارح به عمها ولا تعرفه أمها، وروت له قصتها من البداية البعيدة من حب المراهقة الساذج.. زواج القلب بلا أى اعتبار سوى الحب.. صدمة الفشل.. عقدة المطلقة الشابة الجميلة التى تطاردها العيون.. رفضها المتكرر لتجربة الزواج خوفًا من الفشل. انهماكها فى العمل ونجاحها فيه، ثم أخيرًا حب النضج الذى يواجه أعاصير العذاب الآن! فلقد أحبت منذ عامين شابًا يكبرها بخمس سنوات التقت به فى عملها.. ووجدت نفسها للمرة الأولى منذ تجربة الفشل تهتم برجل آخر، ثم تحول الاهتمام إلى طوفان من الحب لكن السعادة لم تلق بمراسيها فى مرفأ الزواج رغم كل شىء. وتوقفت عن الحديث وبدأت عيناها تتنديان بالدمع فبلغ اهتمامه بالقصة ذروته وسألها:

ـ وماذا يمنعه من أن يتقدم إليك ويرتبط بك وأنت أمل لأى رجل آخر؟

فتحول ندى العين فجأة إلى مطر غزير وانتظر حتى تمالكت نفسها وتكلمت:

ـ لا أعرف.. هذا ما أريدك أن تفسره لى.. إنه يقدم ثم يحجم.. يعدنى بأن نضع النهاية السعيدة لحبنا خلال أيام ويتحمس للحديث عن المستقبل.. وشقة للزواج.. وخطتنا لشهر العسل ثم فجأة يهبط حماسه ويتهرب فأثور وأغضب وأصطدم به صدامًا مروعًا.. وأطالبه بالاختفاء من حياتى.. وتنقطع صلتنا شهورًا أتعذب بها حتى النخاع ثم أبدأ بالاتصال به أو يبدأ هو فنستعيد علاقتنا أقوى مما كانت.. ونسعد بالحب من جديد ثم يتجدد الصدام بعد قليل.. وهكذا!

وتوجهت بوجهها الجميل إليه ثم قالت: إننى لا أعرف أين أقف الآن.. هل يحبنى حقًا؟.. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يبتعد حتى أظنه قد مات ثم يعود فجأة ولماذا يرفض أن يتقدم خطوة للأمام.. إننى لست فى حاجة للزواج من أجل الزواج، فهو يعرف أننى أستطيع أن أقبل زوجًا ممتازًا فى أى وقت، كما أنى ناجحة فى عملى وفى حياتى الاجتماعية ولست ضعيفة.. لكنه يحيرنى بموقفه وتقلباته المفاجئة وأريد أن أفهم منك.. هل يحبنى؟

فنظر إليها الأستاذ صامتًا ثم أجابها بهدوء.. نعم يحبك.

فسألته: إذن لماذا لا يتقدم لأسرتى؟

فعبث بالقلم الرصاص بين أصابعه لحظة ثم قال لها:

لأنه يخاف منك!

وبهتت الزائرة الجميلة، لإجابته وتساءلت:

يخاف منى؟ لماذا؟

فعاد يعبث بالقلم وهو يقول لها: لأنك جميلة وشهية ولافتة للنظر أكثر مما تحتمله ثقته فى نفسه.. عفوًا وثقته فيك أيضًا.. وهو لم يستطع أن يواجه حقيقة أنك مطلقة جميلة شابة دخل حياتك زوج سابق قبله ثم عشت بعد ذلك سبع أو ثمانى سنوات قبل أن تلتقى به كمطلقة.. وموظفة بهيئة دولية لموظفيها حياة اجتماعية عريضة.. فتساءل عقله الباطن قائلاً له: نعم إنها "ثروة" لمن يفوز بها وأنا أحبها وأريدها.. ولكن كم "فائزًا" قد صادفه مثل هذا الحظ السعيد قبلى؟. وهل أستطيع احتمال ذلك؟

إنه يراك مخلصة له فيكذب ظنونه وتهدأ خواطره، ثم قد يرى منك لمسة تمرد أو عصبية أو سيطرة فيسأل نفسه:

هل حقًا سوف أمتلكها وحدى للنهاية.. أم أن هناك من سوف

ينافسنى فيها بعد حين وهى "دعوة متحركة" لاهتمام الرجال بجمالها؟ وحتى لو كانت مخلصة لى الآن، فهل يرشحها ماضيها المجهول للإخلاص لى فى المستقبل أيضًا.. إنها ليست فقط لافتة للنظر بجمالها.. بل وقوية الشخصية أيضًا وعنيدة وعصبية فبماذا تعدنى الحياة معها فى المستقبل سوى بمتعة طاغية أو عذاب لا يحتمل ولا وسط بين الاثنين؟ وهكذا يحتدم الصراع دائمًا فى أعماقه تجاهك.. فتضطرب مواقفه معك وهذا هو سر إقباله عليك أحيانًا وابتعاده عنك فى أحيان أخرى.

وتنبه وهو يحدثها إلى ملامح الدهشة التى علت وجهها فسألها مشفقًا: هل تحليلى هذا بعيد عن الواقع؟ فقالت له ذاهلة: بالعكس إنك تفسر لى كل ما غمض علىَّ من فهم تصرفاته.. بل لقد استخدمت فى حديثك بعض كلماته لى كأنما شهدت بعض مشاجراتنا، فهو يتحدث كثيرًا كما قلت أنت عن عصبيتى وعنادى وقوة شخصيتى.. وعن مجتمع العمل فى الهيئة الأجنبية التى يظن أن كل موظفيها لابد قد دخلوا فى علاقات خاصة مع موظفيها، لكنى مازلت متحيرة فإذا كان هذا هو رأيه فىَّ فلماذا لا يبتعد عنى ويدعنى وشأنى؟

فرجع بظهره إلى مقعده وهو يقول مبتعدًا بعينيه عنها كأنما يحدِّث شخصًا آخر:

ـ ليس الأمر بهذه السهولة؟.. فهو يحبك رغم كل هذه المخاوف والشكوك التى تسكن عقله.. والحب فى النهاية لا يخضع إلا لأحكام القلب ومشكلتك معه أنه فى صراع مستمر بين عقله وقلبه.. فعقله لا يقتنع بك وقلبه يريدك وكلما انتصرت محاذير العقل ابتعد.. وكلما انتصر نداء القلب رجع، ولهذا فإن أفضل وضع بالنسبة له هو استمرار الحال على ما هو عليه الآن بينكما ولأطول فترة ممكنة: لحب يلبى نداء القلب بغير زواج يثير مخاوف العقل!

ولهذا أيضًا فلابد أن يحدثك طويلاً عن ضرورة ألا تفسد متعة الحب بقيود الزواج الآن.. فكل زواج ليس دليلاً على الحب وكل حب لا يؤدى بالضرورة إلى زواج، فلماذا إذن نتعجل العذاب ولماذا لا ندع نفسينا لما سوف تختاره لنا الأيام دون أن ندفعها نحن فى اتجاه بعينه، وخلال ذلك تحاولين التخلص من "عيوبك" قليلاً حتى لا "نتزوج" ثم "نفشل" فتكون القاضية لكل "منا"! وقاطعته قائلة باهتمام: كيف "عرفت" كل ذلك.. إنه يقول لى نفس هذه الكلمات بنفس الحروف تقريبًا!

فارتسم ظل ابتسامة حزينة على وجهه.. وقال لنفسه لو صدقت معها لأجبتها عن سؤالها بأنى لم "أعرف"، لكنى "قلت" نفس الكلام وعشت نفس القصة مع شبيهتها بكل تفاصيلها تقريبًا، وواجهت

نفس الحيرة بين نداء القلب ونداء العقل.. وجبنت عن اتـخاذ القرار الذى أكاد "أحتقر" فتاك الآن لأنه يـجبن عن اتـخاذه معك فأضعت الـحب من يدى.. ولو رجعت الأيام لما خفت ولما ترددت ولما استكثرت على نفسى فاتنة مثلك.. ولما حاسبتها عن سنواتـها السابقة لتجربة الحب معها.. ولاستأذنت عقلى فى أن يسـتريح من هواجسه ويدعنى أكمل الـمشوار معها حتى النهاية.. فحتى لو صدقت مـخاوف العقل فيما بعد ألـم أكن قد فزت من السعادة بسنوات قد يطول العمر بعدها فلا يسمح بمتعة لـحظة من لـحظاتها؟.

نعم تعلمت الحكمة بعد فـوات الأوان وعرفـت بالحرمـان أنـه لا يفوز بالسعادة إلا الجسور، وإنما لم أكن جسورًا ولا شجاعًا بل كنت عاشقًا "وضيع" الإرادة.. أريدها وأجبن عن امتلاكها.. أحبها وأخشى من عثرات مستقبل فى علم الغيب، فأطلت التردد والاقتراب والابتعاد حتى ضاقت بى ويئست منى.. فابتعدت وتزوجت ممن لم تحب وهاجرت معه.. وانقطعت أخبارها عنى، وتزوجت أنا زواج العقل الرصين بعد هجرتها.. فتجرعت الخيبة وفتور العاطفة وملل الحياة التى لا تعرف لهيب الحب ولا عذابه فانتهت التجربة بالانفصال دون إنجاب بعد عامين فقط ولم تتكرر التجربة بعد ذلك أبدًا.

أفاق من سرحانه على صوتها يلح بالسؤال: أستاذ.. بماذا تنصحنى

أن أفعل معه.. هل أتركه وأتزوج ممن تريدنى أمى أن أتزوجه رغم أنى لا أحبه ولا أشعر تجاهه حتى بمجرد القبول؟

فرفع إصبعه محذرًا: لا.. لا تتزوجى أبدًا ممن تشعرين بالنفور منه مهما كانت الظروف، وحتى لو فشلت تجربتك مع فتاك هذا فلا تتزوجى إلا بعد فترة نقاهة نفسية، تتخلصين خلالها من آثار هذا الحب على شخصيتك ومشاعرك.. ولا تتزوجى إلا بمن تشعرين تجاهه على الأقل بالقبول النفسى، لكن قبل أن تفعلى ذلك دافعى عن حبك حتى الرمق الأخير، وابذلى كل جهد لطمأنة خواطر فتاك تجاهك وتدعيم ثقته فيك وفى نفسه وفى أنه يستحق أن تخلصى له حتى نهاية العمر، وفى كل الأحوال فلا تحاولى أبدًا حثه على الزواج منك بإشعاره بالغيرة عليك وبأنك مرغوبة من آخرين "أفضل" منه، وأنه يستطيع أن يفوز عليهم إذا تقدم خطوة واحدة وامتلكك للأبد.. فإثارة غيرته لا تخدم هدفك فى إقناعه بالزواج منك.. وإنما تؤكد على العكس مخاوفه منك ومحاذير العقل الذى يوسوس له بها.

وقاطعته مرة أخرى ذاهلة: وكيف عرفت أننى أفعل ذلك يا أستاذ؟ لقد فعلته فعلا لحثه على أن يتزوجنى.. فكان يثور ويغضب ونتبادل أقسى الاتهامات، ويبتعد ثم يعود طالبًا إعطاءه فرصة جديدة ينسى خلالها ما أثرته من شكه فىّ!

تمامًا كما كان يفعل بعد كل موقعة بينهما بسبب محاولتها الدائمة لإشعاره بأنه إن لم يتقدم إليها الآن فلن يطول الوقت حتى يهزمه غيره فى قلبها فأبعدته عنها بقدر ما رغبت فى أن تقربه منها!

وحثته على الخروج عن صمته بنظراتها فأكمل حديثه:

ـ وأعطيه مهلة أخيرة لا تتجاوز ثلاثة شهور أو أربعة واصلى خلالـها طمأنته وتدعيم ثقته بك وتـجنبى العصبية معه، وتـجنبى مـحاولة السيطرة عليه وإشعاره بقوة شخصيتك فى حياتك الـخاصة وفى مـجال العمل فبعض الرجال تـخيفهم قـوة شخصية الزوجـة أكثر مما يزعجهم ضعفها، فـإذا تقـدم خطوة للأمـام فى طريق الزواج فواصلى الطريق معه إلى نـهايته، وإذا استمر الكر والفر بينكما والصراع داخله فلا تضيعى من العمر أكثر من ذلك، فلن يـحسم بعد ذلك هذا الصراع أبدًا لصالحك إذا طال عن ذلك وسيظل يراوغ ليطيل تجربة الحب بلا مخاوف ولا تبعات لأطول فترة ممكنة، وسيكون ذلك خصمًـا من سنوات عمرك بلا طائل.

نصيحة لم يقدمها أحد فى حينها "للأخرى" فطالت قصته معها خمس سنوات كاملة شهدت أقصى السعادة وأقصى الشقاء، ظللت أراوغها خلالها بنفس الحجج والمبررات مشفقًا على نفسى من الزواج بها.. ومشفقًا على نفسى من أن أفقدها تمامًا كما يفعل هذا "الجبان"

الآن مع زائرتى الشهية.. ولو رجعت الأيام لما كنت هذا المحامى الوحيد الذى يقترب الآن من الستين حتى ولو تضاربنا كل أسبوع مرة كما كنا نفعل فى عنفوان الحب.. والغيرة.. والشك!

ونهضت الزائرة أخيرًا شاكرة وهى تعده بأن تعمل بما أشار عليها به وكررت رجاءها له بألا يخبر عمها بشىء مما صارحته به.. فأكد لها ذلك بكل ثقة وودَّعها باحترام، فقالت له فجأة وهى تهم بمغادرة المكتب: سؤال أخير كيف عرفت بما يفكر فيه "هو" تجاهى.. وبما يقوله لى وبما أفكر فيه أنا وأفعله معه.. هل تقرأ الغيب يا أستاذ!

فضحك منتشيًا بالإطراء للمرة الأولى منذ رآها، وقال لها مؤكدًا لا غيب ولا دياولو. إنها فقط خبرة السنين.

وغادرت مكتبه فتأهب لجمع أوراقه استعدادًا للانصراف وصوته الباطنى يهمس له مستكملاً الجملة الأخيرة: أقصد خبرة الجبن والتعاسة والنكوص عن جنى ثمرة الحب!

استقبله صديقه إبراهيم فى مقهى الزهرة بشارع عماد الدين مرحبًا فتصافحا بحرارة وجلسا وإبراهيم يقول له باسمًا:

ـ أخيرًا اقتنعت.. وهذه علامة طيبة!

فقال له سليم وهو يفكك أزرار معطفه الرمادى: نعم.. ما دمت تراها فكرة صائبة.

11

فقال له الآخر بحماس: تأكد أنك لن تندم.. فإن لم تجد فيها كل ما ترغبه.. فستجد فيها على الأقل تجربة جديدة.. وعالما آخر! وهز سليم رأسه موافقًا.. وجاء الجرسون بالقهوة فاحتسياها على عجل وسليم يتأمل وجوه رواد المقهى بذهن شارد.. ثم نهض إبراهيم ودعاه للقيام فتبعه فى صمت إلى خارج المقهى.. واصلا السير فى اتجاه شارع رمسيس ثم انحرف إبراهيم بصديقه يمينًا فى شارع جانبى لبضع خطوات ومال به ناحية اليسار، فوجد سليم نفسه أمام مبنى بدا له كالجراج المهجور بالرغم من لافتة النيون المضيئة باللون الأحمر.. ولوحة الإعلانات الباهتة التى تعلو مدخله.. تقدم إبراهيم ورفع يده بتحفظ للرجل الواقف بالباب فرد الآخر تحيته بحرارة تشى بمعرفته السابقة له، وعبرا الباب إلى ممر شبه مظلم انتهى بهما إلى باب على اليمين عبراه إلى صالة واسعة

تتصدرها حلبة دائرية من الخشب تعلو الأرض بارتفاع قليل، وجاء الجرسون مرحبًا وقادهما إلى مائدة مطلة على الحلبة. ووقف ينتظر التعليمات فأشار له إبراهيم بأصبعه قائلاً: اثنان!

والتفت إلى صديقه الجديد على المكان وقال له: مكان قريب وفى وسط المدينة.. والسهرة فيه محتملة التكاليف.. وقد تنتهى "بمتعة إضافية" إذا حالفنا التوفيق!

فتأمل سليم المكان حوله.. فرأى بارًا صغيرًا فى جانب من الصالة تجلس إليه ثلاث فتيات وشخصان.. ورأى الموائد تحيط بالحلبة الدائرية من كل جانب لكن أكثرها خال من الرواد، ولا يشغل مقاعدها سوى تسعة أو عشرة أشخاص آخرين يروح ويجىء العاملون بالمحل بينهم. ولاحظ حوائط الصالة المنجردة من طلائها ومفارش الموائد التى لا تخلو من ثغرات فتأكد له بؤس المكان وفهم سر اعتدال تكاليفه. جاء الجرسون بكوبين طويلين ووعاء للثلج وطبق به بعض حبات السودانى فنظر إليهما سليم فى حرج وقال لصديقه: أليس من المناسب أن أكتفى فى البداية بالفرجة حتى آلف الجو.

لكن الآخر رفع الكوب إلى فمه وحثه على أن يرفع كوبه مؤكدًا له أنه لن يألف المكان إلا إذا انغمس فى التجربة بكل تفاصيلها. فأذعن

سليم لرغبة صديقه ورفع الكوب إلى فمه ببطء ففاجأته رائحته.. ومرارة مذاقه المزعج.. فتجرع أول جرعة منه محاذرًا أن يرتسم نفوره وامتعاضه على وجهه.

ودعا إبراهيم الجرسون مرة ثانية بنفس الإشارة فجاء حاملاً كوبين جديدين.. وتكررت نفس المحنة.. لكنه بدا أقل نفورًا من المكان بعد الكوب الثانى. وشهدت الحلبة الدائرية صعود خمسة أشخاص يحملون الآلات الموسيقية معظمهم كهول بائسون، ثم بدأت فقرات البرنامج فتوالت أمام عينيه فقرات للرقص أو الغناء أثارت إشفاقه على مقدميها أكثر مما أثارت ابتهاجه واستمتاعه. وفى توقيت حاسم أشار إبراهيم بيده إلى الفتيات الجالسات فى مقاعد البار، وهمس سليم بالاعتراض مناشدًا صديقه الاكتفاء بالمشاهدة فى تجربته الأولى.. لكن الآخر طالبه "بخوض التجربة.. كاملة".. وحسم نقاشهما مجئ الفتاة وفى إثرها الجرسون فدعاها إبراهيم للجلوس وطلب لها مشروبًا.. وجلست بين الصديقين تفتعل المرح وتداعب الضيف الجديد. فلم يغب عن سليم تكلفها وتعثرها فى فستان أكبر من حجمها وتنافر ملامحها الريفية مع ماكياجها الصارخ، واستقر الرثاء لها فى أعماقه، حاول قدر جهده ألا يخذلها ويتجاوب مع دعاباتها بقدر الإمكان.. لكنه أحس بثقل الوقت وبطئه وتمنى لو لم يبدأ المشوار من البداية.. وقرب الفجر غادرا المكان مودعين من الجرسون والفتاة التى اعتذرت

عن الخروج مع إبراهيم بعذر طارىء وأصرت على أن يعدها سليم بالعودة لرؤيتها مرة أخرى ففعل متظاهرًا بالجدية. ووقفا يترقبان سيارة أجرة فسأله إبراهيم: ما رأيك فى التجربة؟

واستشعر سليم لهفة صديقه الخفية على الإحساس بأنه قد قدم له تجربة ممتعة فبسط كف يده متظاهرًا بالامتنان وقال له: لم أتخيل أن تكون ممتعة إلى هذا الحد! وراقب ابتهاج صديقه الطفولى بذلك فى عطف وقال لنفسه.. أقسى من التعاسة.. أن تضطر راغمًا للتظاهر بالابتهاج!

* * *

أنهى المكالمة مؤكدًا لصديقه سيد أنه سيكون أمام باب المطعم الذى حدده له فى الموعد تمامًا.. وفى المساء توجه إلى ميدان السيدة زينب فوجد صديقه ينتظره أمام باب المطعم ودخلاه معا. ارتقيا السلم إلى الدور العلوى.. وراحا يتسامران فى انتظار الشواء.. وصديقه سيد يشيد بحكمته التى هدته أخيرًا إلى أن يرى عين الصواب فيما دعاه إليه مرارًا من قبل. أكل قليلاً كعادته فى الشهور الأخيرة وفشلت محاولات سيد لحثه على الإكثار من الطعام استعدادًا للتجربة ثم غادرا المطعم سيرًا على الأقدام.. وسيد يروى له طرائف بعض أصدقائهما فى مثل هذه السهرة الليلية فتساءل سليم فى باطنه: هل يجئ يوم يحكى فيه سيد

عنه بعض هذه الطرائف؟ ورغم ذلك لم يفكر فى التراجع.. وواصل السير مدفوعًا برغبة غامضة. بلغا بيتا متهدما ففوجئ سليم بصديقه سيد يدفع بابه الخشبى ويدعوه للدخول فدخل وراءه متهيبًا.. وسارا بين جدران متهدمة خشى سليم أن تسقط فوقهما فى أى لحظة.. إلى أن وصلا إلى منور سماوى.. فدهش سليم حين رأى عددًا من الأشخاص يجلسون فيه فوق دكك خشبية متناثرة.. وينتقل بينهم أشخاص يرتدون الجلاليب ويحملون أدوات التدخين مشرعة كالحراب. اتجه به سيد إلى إحدى الأرائك، وجاء أحد الرجال ناحيتهما وتبادل التحية مع سيد ثم جلس القرفصاء أمامه، وبعد قليل وجه إليه غابة طويلة استقبلها سيد بترحاب ثم جذب منها أنفاسًا عميقة ونفث من فمه وأنفه دخانًا كثيفًا له رائحة عطرية.. ثم مال بها إلى صديقه سليم وهو ينظر إليه حاثا له على الإقدام، فتناولها الآخر بخوف.. وسحب أنفاسًا خفيفة مترددة. وسيد يشير للرجل بأن يترفق به فى البداية فيجيبه الرجل بهزة من رأسه تفيد أنه يعى الموقف تمامًا.

وترددت الغابة بينهما مرارًا وتشجع سليم شيئًا فشيئًا فتخلى عن بعض حذره.. وأحس بثقل غريب فى مؤخرة رأسه وفقد سليم الإحساس بغرابة المكان وانحصر عالمه فى تلك اللحظات فى هذا الحيز الصغير من الدنيا. ولم يدر هل طال الوقت أم قصر قبل أن يجذبه سيد داعيًا إياه للنهوض فسار وراءه مسلمًا له قياده، وهو يغالب رغبة

عجيبة فى الكلام والثرثرة فى حين ران الفتور على صديقه سيد وفقد الاهتمام بكل شىء حتى بصديقه الذى دعاه لدخول هذا العالم الغريب! وفى الميدان الواسع أوقف سيد سيارة أجرى وهم بركوبها مودعًا صديقه فانتاب سليم إحساس مفاجئ بالفزع وسأله مضطربًا: هل تتركنى أعود وحدى للبيت؟

فتنبه سيد رغم فتوره إلى حداثة صديقه فى التجربة وأدرك الموقف فدعاه للركوب معه على أن يوصله إلى بيته أولاً!

وتوقفت سيارة الأجرة عند باب النصر الأثرى.. وغادرها الصديقان وحامد يقول لسليم: ليس المكان بعيدًا عن هنا لكن سيارة الأجرة لا تستطيع دخول الحوارى الضيقة.. فهز الآخر رأسه متفهمًا ومضى وراء صديقه يجوبان الأزقة وينحرفان يمينًا ويسارًا فى حوارٍ ضيقة متداخلة حتى تعجب سليم "لمهارة" صديقه فى الاهتداء إلى غايته من خلالها بغير خريطة. وأخيرًا توقفا أمام بيت قديم.. وطرق حامد الباب فانفتح وجاءه صوت من أعلى السلم يدعوه للصعود.. فارتقيا السلم الحجرى القديم إلى أن انتهيا إلى بسطة يقف فيها رجل بدين مريح الملامح.. أبيض اللحية.. مشرق الوجه ما إن بلغ حامد موقفه حتى استقبله فاتحًا ذراعيه فتبادلا العناق وتقبيل الوجنات. ثم استدار حامد ليقدم إليه صديقه.. ففوجئ سليم بالرجل يفتح له

ذراعيه مرحبًا ومعانقًا بحرارة كأنه صديق قديم ثم يقودهما إلى الداخل وهو يقول لسليم بوجه بشوش: إذن فأنت صديق حبيبنا حامد الذى حدثنا عنه طويلاً.. ورجوناه أن يدعوك لزيارتنا مرارًا.. فلم تستجب.. لكن لا وجه للعتاب مادمت قد شرفت بيتنا المتواضع.

فتعثر سليم فى خجله وردد بعض عبارات الاعتذار، ثم دخل الجميع غرفة واسعة فرأى سليم عند دخولها حوالى عشرة رجال من أعمار مختلفة تبدو هيئتهم محترمة ينهضون من الأرض واقفين ومرحبين ومعانقين لحامد.. ومصافحين لسليم بحرارة وألفة غريبة.. ثم جلس الجميع إلى الأرض التى يكسوها بساط ثمين وليس فيها من الأثاث سوى مكتبة حائط صغيرة.. وتليفون!

وبعد قليل جاء رجل حاملاً صينية ملأى بأكواب الشاى فتوجه بها إلى رب البيت الذى نهض من جلسته وطاف على الحاضرين يقدم لكل منهم كوبه، فينهض احترامًا للرجل ويتقبل منه الكوب شاكرًا. تأمل سليم الحاضرين فى صمت ولاحظ لدهشته أنه قد ألف المكان والأشخاص على وجه السرعة.. على عكس طبيعته وتلذذ بمذاق الشاى الساخن وتمنى لو استكمل المتعة بتدخين سيجارة لكنه لاحظ أن الجميع لا يدخنون فكتم رغبته.. إلى أن فوجىء بصاحب البيت يخرج يده من جيبه حاملة علبة سجائر أمريكية ثم يقدم له منها سيجارة فتوقف أمامها محرجًا.. لكن الرجل قال له باسمًا فى فهم:

ـ لا بأس بالسلوى للقلب الحزين.. فدخِّن ولكن باعتدال فحبيبنا حامد يقول لنا إنك تسرف فى التدخين والقهوة.. وهذا ضار بالصحة ولا يليق برجل "كامل" مثلك فشكره وتناول السيجارة منه.. وأسرع بإخراج علبته وقدمها للرجل راجيًا أن يتناول إحدى سجائره فتقبلها شاكرًا.. وهمَّ بأن يطوف على الجالسين بعلبة سجائره فأعفاه حامد من المحاولة قائلاً له إنهم جميعًا لا يدخنون. وبعد قليل تنحنح صاحب البيت ثم قال: درسنا الليلة عن الصبر! فتلقى قلب سليم الإشارة واجفا.. وانطلق الرجل فى حديث مريح استغرق نصف ساعة عن فضل الصبر على الشدائد.. ومنزلة الصابرين عند ربهم تخللته عبارات الاستحسان من الحاضرين، واختتمه الرجل باسطًا يديه إلى أعلى وداعيًا الحاضرين للدعاء بالصبر لكل المكلومين! وشاركهم سليم الدعاء وهو يتجنب نظرات الحاضرين.. ثم نهض رب البيت داعيًا الجميع للصلاة فأدوا صلاة خفيفة وعادوا للجلوس، وعاد الرجل بصينية الشاى فتناولوها بنفس النظام السابق وراحوا يتسامرون بعض الوقت ثم قال رب البيت لأحد الحاضرين: لا حرمنا الله من صوتك! فابتسم الرجل فى حياء، ثم رفع يده إلى إحدى أذنيه وانطلق ينشد بصوت جميل:

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما

شربت التى فى تركها عندى الإثم

فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحيا

ومن لم يمت سكرًا بها فاته الحزم

فجزع سليم للإشارة الصريحة إلى "الخمر" فى مثل هذا المجال وراقب الحاضرين خلسة فوجدهم جميعًا غير مستنكرين، فلاذ بالصمت وانتهت الجلسة بعد منتصف الليل وغادرها مودعًا بحرارة من صاحب البيت وزواره ومؤكدًا لهم عودته إليهم مرة أخرى.. ولم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال عما لفت نظره، فسأل حامد وهما يسيران فى الأزقة المتعرجة: هذا الرجل الذى غنى هل هو منشد أم مطرب؟

فأجابه الآخر: لا.. إنه موظف كبير بدرجة وكيل وزارة. فسكت قليلاً ثم قال له: ألم تلاحظ أنه أنشد شعرًا عن "الخمر" فى هذا البيت؟ فضحك حامد بابتهاج وقال له: ما قاله ليس من شعره.. لكنه من شعر ابن الفارض.. والكلام عن الخمر فعلاً.. لكن "الإشارات" والرموز أبعد ما تكون عنها والصوفية يتعاطون خمر الحب الإلهى.. لا خمر الحانات!

دخل على طبيبه حاملاً التحليل والأشعات التى طلبها منه ففحصها الطبيب باهتمام ثم رفع رأسه عنها وقال له:

كما توقعت تمامًا.. لا شيء البتة.. والأرق والصداع وضيق التنفس واضطراب ضربات القلب وفقد الشهية والحيوية ليس لها كلها أسباب عضوية فامتنع عن التدخين أو خفف منه.. ولا تسرف فى احتساء القهوة.. وتشاغل عما يزعجك.

فشكره وانصرف وهو يحس بأن زيارته له لم تضف له جديدًا.

* * *

تنبهت الزوجة فى فراشها فلم تجده إلى جوارها فخمنت أن يكون كعادته طوال الشهور الأخيرة جالسًا فى غرفة المعيشة يحرق صدره بالسجائر المتواصلة وفناجين القهوة المتتالية، وهمت أن تدعه لحاله لكن صوتًا مكتومًا ترامى إليها، فنهضت من فراشها منزعجة وأسرعت إلى غرفة المعيشة فرأته كما توقعت مرتميًا على الأريكة يجهش ببكاء مرير وجو الغرفة ملبد بدخان السجائر.. فوضعت يدها على رأسه برفق.. وتنبه سليم لوجودها فحاول كتم بكائه بلا جدوى، وشاركته البكاء الصامت لفترة ثم ربتت على رأسه وقالت له: غلبنى النوم قبل مجيئك فلم أستطع إبلاغك عما قالته لى الطبيبة هذا المساء.. لقد قالت لى إننى أستطيع الإنجاب مرة أخرى رغم مرور ثمانى سنوات على حملى الوحيد، وأكثر من ذلك كانت لطيفة فقبلت أن تصف لى دواء منومًا جيدًا وتناولت قرصًا منه فى المساء فاستسلمت

للنوم بعد لحظات. فقم معى وتناول قرصًا منه، إنه ساحر المفعول ثم جذبته من ذراعه فاستسلم لها ومضى إلى جوارها إلى غرفه النوم وهى تجفف دموعها الصامتة.. وحلم الاستغراق فى النوم بعد تناول القرص الجديد يراوده واعدًا بالراحة بعد العناء، والحلم الآخر بإنجاب طفل جديد يتعزى به عن فقد "الغالى" فى تلك الظروف المأساوية.. يداعب أعماقه الحزينة ويتردد فى باطنه بين الارتياح له.. والشك فيه!

دخل العمارة التى يقيم بها واستعد لمشوار صعود الدرج إلى مسكنه بالدور الرابع.. فاستجمع قواه وبدأ يصعد الدرج ببطء شديد.. حذره الطبيب منذ فترة من بذل المجهود الكبير خاصة فى صعود السلم، لكن كيف يتجنب ذلك وعمارته بلا مصعد ولا أمل فى سكن آخر فى ظروفه الحالية.. ولا مفر من الاحتمال ومحاولة تقليل الأضرار بقدر الإمكان.

.. لا تبدأ صعود السلم وأنت مرهق بالمشى.. وإنما توقف برهة حتى ينتظم تنفسك وتتخلص من إجهاد المشى.. ثم ابدأ صعود السلم درجة بعد درجة، واشغل ذهنك بالتفكير فى أشياء بهيجة تهون عليك الرحلة وتزيد من بطء خطواتك. هكذا نصحه أهل الخبرة.. فالتزم بنصائحهم وعمل بها، وكثيرًا ما انتهز فرصة الصعود البطىء ففكر فيما يشغله من أمور.. أو تربص لأى جار نازل فى الاتجاه الآخر فحياه وتوقف يتحدث معه فى أى شأن ليستريح لحظات.. وفى مرات كثيرة ينظر إلى أبواب الشقق المغلقة ويتذكر سكانها من الجيران.. ويسترجع
12 ذكرياته معهم. عمارته رغم الارتفاع ليست كبيرة فهى من خمسة أدوار وتقيم فى كل دور أسرتان.. وقد جمعته الحياة بسكانها منذ عشر سنوات فعرفهم وعرفوه وتبادل معهم علاقات المودة وحسن الجوار.

تجاوز الدور الأول بسلام وبدأ يصعد درجات الدور الثانى فسمع وقع أقدام صغيرة هابطة من أعلى. ما أكثر أطفال العمارة وما أحبهم إلى قلبه. هم أصدقاؤه الحقيقيون فى هذه العمارة.. ومعهم يتصرف على سجيته أكثر مما يفعل مع أى جار آخر. اقتربت الأقدام الصغيرة.. فرآها أمامه وتهلل لرؤيتها بأكثر مما يفعل مع أى طفل آخر.. وتوقف لاهثًا وهو يقول فى مرح:

ـ من هذا "القمر" الجميل الذى يهبط السلم؟

ابتسمت الصغيرة ابتسامة عريضة.. وأفسحت الطريق له ليعبره لكنه لم يفعل، وإنما توقف وقال لها: إلى أين يذهب "القمر" الآن؟

فأجابته بصوت خافت أنها نازلة لتشترى بعض الحلوى من البقال الذى يقع محله فى نفس العمارة.. فسأل عن نوع الحلوى.. وعن ثمنها وعن مرات تناولها كل يوم.. وقدم نصائحه الثمينة لها بعدم الإفراط فى تناولها حتى لا تفسد هذه الأسنان "اللؤلؤية" الجميلة.. وحتى لا تفسد شهيتها للطعام كما كرر نصيحته المعتادة لها بألا تغادر رصيف العمارة أو تعبر الطريق لأى سبب من الأسباب خوفًا عليها من السيارات المسرعة.. وتلقى تأكيداتها بأنها ستفعل ذلك ولم يكتف بالوعد وإنما قال لها إنه سيحسب الزمن من لحظة مغادرتها إلى لحظة عودتها "ليعرف" هل التزمت بوعدها أم أخلفته

وسينتظر منها أن تطرق باب شقته لتطمينه على عودتـها سالـمة.. فإذا فعلت ذلك فسوف يعطيها كتاب الصور وأقلام التلوين التى كان يستخدمها ابنه وهو فى سنها.. ولـم ينس بعد ذلك أن يسألـها عن شقيقها وأبيها ثم عن "ماما" وأجابته بأن الـجميع على ما يرام فأفسح لـها الطريق.. وواصل الصعود ثم التفت إليها بعد عدة درجات، فوجدها تنظر إليه ضاحكة ولوَّح لـها مودعًا، ومذكِّرًا بوعدها فلوحت له بيدها الصغيرة ثم واصلت الهبوط بنشاط..

سألها عن "ماما" وأجابت أنـها بخير.. ترى هل تـحتفظ ذاكرتـها الصغيرة بأى أثر "للأخرى" التى انسحبت إلى عالـم النسيان؟ يقولون إن ذاكرة الأطفال أقوى مما نعرفه عنها.. فهل تـختزن ذاكرتـها أى أثر للأخرى الحقيقية؟.

لقد كانت جميلة كالملاك ورقيقة مع الجميع وحزينة حزنًا شفيفًا غامضًا يثير عطف كل من يتعامل معها وإشفاقه، تبادر الجميع بالتحية كلما التقت بأحد على درج السلم ولا يفوتها السؤال عن الزوجات والأزواج والأبناء، ولا تفوتها مناسبة لمجاملة جيرانها دون أن تجاملهم فيها بإخلاص، ففى كل المناسبات يطرق طفلها الصغير الباب حاملاً التورتة الجميلة التى برعت فى صناعتها فى البيت، مع تحيات ماما وتهنئتها، وفى المناسبات الحزينة تذهب مبكرة وتشارك أصحابها بدموعها الغزيرة.

ومن زوجته عرف أنـها زوجة لمحاسب شاب يقيم فى الشقة التى تعلو مسكنها مباشرة وأنـها أم لطفل فى الـخامسة وحامل فى وليـد جديـد تنتظره بشغف، ورقيقة وغزيرة الدموع فى كل الأحيان. وسمع من زوجته أن جارة لها عاتبتها بفظاظة ذات يوم لأن ابنها ضرب طفلتها خلال لـهوهما فى مدخل العمارة.. فانفجرت باكية وهى تعتذر لـها بحرارة حتى ندمت الـجارة على غلظتها معها.. وتأسفت لـها كثيرًا.

ومن زوجته أيضًا عرف أنـها تزوجت زميلاً لـها بالكلية بعد قصة حب عميق بينهما، وأنـها كافحت طويلاً مع أبويـها لإقناعهما بفتاها الذى لـم يكن يملك إمكانيات الزواج ولا تعدها الـحياة معه إلا بحياة متقشفة لا تقارن بحياتـها السابقة فى بيت أبيها الطبيب الناجح، وأنـها رفضت العريس الـجاهز الذى رشحته لـها جارتـها والذى يملك شقة مناسبة فى حى راق.. وسيارة حديثة.. ودخلاً يمكنها من الـحياة المريـحة وتمسكت بفتاها الـمكافح الـذى حصل بمعجزة على شقة صغيرة فى الدور الـخامس فى بيت قديم بلا مصعد.. وجفت إمكانياته فعجز عن تقـديم أى شىء آخـر، وتكلفت هى بباقى تكاليف الـجهاز وتنازلت عن أحلام الزفاف الفاخر فى فندق كبير.. ورضيت من الـحياة بزوج تـحبه ويـحبها ويتعاونان معا على أعباء الـحياة، وأعانـها أبوها بمبلغ شهرى صغير رافضًا بإصرار السماح

لـها بالعمل لأن صحتها لا تـحتمل إجهاد العمل ورعاية بيت وطفل صغير.. وسعدت بحياتها مع زوجها وإن كانت قد تعرضت لأزمة صحية شديدة عقب ولادتـها لطفلها وأقامت شهورًا بعد الولادة فى بيت أبيها ثم ظهرت ذات يوم أمام مدخل العمارة حاملة وليدها وآثار المرض بادية فى وجهها الـجميل فتسارع الـجيران لتهنئتها بالعودة والإنجاب. وتواصلت حياتها بعد ذلك هادئة.. لا يسمع لها الـجيران صوتًا ولا يرونـها إلا على درج السلم ممسكة بيد طفلها فتبدأ بالتحية والسؤال عن الأبناء، وتتبادل الحديث لحظات مع من يصادفها ثم تودعه باحترام.

وترامت الأنباء إلى الـمهتمين.. بأنها تـمضى فترات طويلة فى فراشها وتتحامل على نفسها لتقوم بواجبها تـجاه زوجها وطفلها.. وأن علاقتـها بطفلها غريبة ومثيرة للتأمل فهى لا تنهاه عن شىء.. وإذا أخطأت مرة ونـهرته فبكى كانت دموعها أغزر من دموعه وندمها أسرع من غضبها. وإذا أبدى تـجاهها أى بادرة تمرد طبيعية من أمثاله من الأطفال بكت بالدمع الغزير وعاتبته كما تعاتب المرأة رجلاً رشيدًا وقالت له: أهكذا يكون جزائى منك لأنى أحبك كل هذا الحب؟ أهكذا يكون جزاء الـحب الذى أحـمله لك.. ثم تواصل البكاء بلا نـهاية حتى يضطرب الطفل الصغير ويندم ويعتذر لـها، فيتعانقان بحرارة ويواصلان علاقتهما الـحميمة! تناقلت الـجارات

عنها ذلك فقالت جارة خبيثة إنـها تـخاطب زوجها فى شخص طفلها وأنـها "مصدومة" فى زوجها الذى ضحت من أجله بالحياة المريـحة فلم يعوضها زوجها بحبه عن تضحيتها.. وإنما جرفته معركة الـحياة وشغلته عن إشباع احتياجاتـها العاطفية.. وتـحول بعد الزواج والإنجاب إلى زوج تقليدى مهموم بأعباء الـحياة.. ولا وقت لديه لزوجته التى مازالت تعيش فى الخيال.

لكن أحدًا لم يسمع عنهما ما يؤيد هذا الزعم أو يؤكده فلم يتشاجرا مرة أمام أحد.. ولم تسمع زوجات الجيران منها يومًا شكوى من زوجها حتى ولو فسرت بعضهن ذلك بدافع الغيرة منها غالبًا بأنها ترفض الاعتراف لنفسها بصدمتها فى الحب حتى لا تذهب تضحيتها هباء، أما هو فكثيرًا ما قابلها مصادفة فى مدخل العمارة أو على درج السلم فبادرته كعادتها مع الجميع بتحيتها الرقيقة وسؤالها عن زوجته وطفله ورد تحيتها بحب واحترام.

ثم يومًا صادفها هابطة الدرج وهى فى أيام حـملها الأخيرة، وقد بدا الإجهاد واضحًا على وجهها، فعرض عليها إن كانت فى حاجة إلى شىء من الـمحلات التجارية أن يأتيها به لتوفر على نفسها مشقة نزول السلم وصعوده.. فشكرته بحرارة وأكدت له أنها فى حاجة للمشى تنفيذًا لأوامر الطبيب.

وبعد أسبوعين من هذا اللقاء العابر دخلت المستشفى لتضع مولودها فكانت طفلة "جميلة" كما عرف من زوجته، وغادرت المستشفى إلى بيت أبيها لقضاء فترة النقاهة فيه فطالت غيبتها عن العمارة، وأغلق زوجها شقته واصطحب طفله الصغير إلى بيت أمه وأقام فيه.

وطالت غيبتها عن المألوف فى مثل هذه الظروف فزارتها زوجته وبعض سيدات العمارة فى بيت أبيها، وعدن مكتئبات لتدهور صحتها وبطء شفائها.

ويومًا صحا من نومه ودخل الحمام ثم اتجه إلى غرفة المعيشة فوجد زوجته جالسة أمام مائدة الإفطار تقرأ صحيفة الصباح ودموعها تنساب فى صمت، فتساءل متوجسًا عن الخبر فقدمت له الصفحة التى تقرؤها.. فتوقفت عيناه على صورة الجارة الرقيقة متصدرة صفحة الوفيات!

ومضت شهور طويلة بعد ذلك والشقة العلوية مغلقة كما هى وساكنها غائب عن العمارة.. ثم أحس ذات يوم بدبيب حياة جديدة فيها.. وعرف من زوجته أن جارها قد عاد للسكن فى شقته مع طفلته.. ومع زوجته الجديدة! زوجته الجديدة! نعم زوجته الجديدة، فقد تزوج من إحدى قريباته مستئذنًا والدىْ زوجته الراحلة

اللذين سلما بحقه فى الزواج ليجد من يرعى طفليه الصغيرين، ورأى الزوجة الـجديدة ذات يوم مع زوجها فتذكر الراحلة الـجميلة بأسى وتمنى من أعماقه أن تكون رحيمة بالطفلين البائسين، وباهتمام خفى حرص على تأمل الأطفال الذين يصادفهم فى ردهات العمارة.. باحثًا عن الطفلة الصغيرة التى لـم تـهنأ أمها بصحبتها طويلاً.. وتعرف عليها للوهلة الأولى حين رآها من ملامح وجهها المريـحة التى تعيد إلى الـحياة صورة أمها الغائبة.. وخصها بعطف خفى واهتمام كبير.. وتكررت مداعباته وهداياه لـها من قطع الـحلوى والشيكولاته حتى أنست له وأحبته غافلة عن دوافعه الأليمة للاهتمام بـها، وتكررت دعواته لـها بأن تزوره فى بيته حتى استجابت لدعوته وقابلتها زوجته بحفاوة بالغة.. فاعتادت الطفلة بعـد قليل أن تطرق بابه من حين إلى آخر، فيفتح لـها الباب ويتهلل لرؤيتها ثم يصطحبها بحماس إلى داخل شقته، ويدعوها لتناول الشاى ومشاهدة التليفزيون معه ويثقل جيوبها عند انصرافها بقطع الحلوى.. وألفت زوجته إذا فتحت لها الباب أن ترحب بـها ثم تناديه قائلة له إن "صاحبته" قد جاءت لزيارته!.. لـم تبلغ الخامسة بعد لكنها صورة مكررة من أمها فى ملامحها الـجميلة الـحزينة بلا سبب واضح.. وفى سرعة استجابتها لمشاعر الآخرين واستعدادها لحبهم.

قال لنفسه ذلك مختتمًـا تأملاته وهو يدير مفتاحه فى شقته فما إن عبر مدخلها حتى جاءه صوت زوجته من المطبخ:

ـ رأيتك من الشرفة تدخل العمارة منذ ثلث ساعة فماذا فعلت فى هذا الوقت الطويل؟

فأجابها وهو يخلع جاكتته ويضعها على مقعد فى الصالة:

ـ قابلت صديقة قديمة على السلم.. فتحدثت معها بعض الوقت!

توقفت سيارة الأجرة فى الميدان الواسع فغادرها جمال متدثرًا بمعطفه، وعبر الطريق فى اتجاه المقهى الكبير آملا ألا تكون الموجة الباردة قد حجبت أصدقاءه فى منازلهم، فى المقهى يلتقون كل مساء منذ سنوات.. لكن فى مثل هذا الجو البارد يتخلف بعض الرفاق متكاسلين.. عن مغادرة البيوت الدافئة بأنفاس الزوجات والأبناء.. ويصمد للعاصفة من كان عزبًا وحيدًا مثله. دخل المقهى فاتجهت أنظاره فى لهفة إلى ركن الأصدقاء، ورأى مصطفى وعبد الكريم يلعبان الدومينو فابتهج باطنه لمرآهما.

تبادلوا التحية بود ودعاه الصديقان لمشاركتهما اللعب فمد يده إلى قطع الدومينو وهو يقول مشيرًا للغائبين هنيئًا للسعداء.. سعادتهم الزوجية!

فأجابه مصطفى، وكان لا يقل حرصًا منه على سهرته اليومية مهما كان الجو باردًا: بل قل هنيئًا "للأنذال" الذين يتخلفون عنا كلما سقطت نقطة مطر.. نذالتهم!

وضحك الثلاثة وتهيأوا لبدء المباراة.. متعة اللعب وإثارته لا تكتملان إلا حين يجتمع شمل الأصدقاء كلهم فيشتركون فى مباريات حامية ومن حولهم الآخرون يعلقون

ويتندرون ويسلخون المهزومين بسخرياتهم اللاذعة فيمضى الوقت بهيجًا حافلاً بالإثارة.. جمعتهم العشرة وزمالة الدراسة أو العمل منذ سنوات طويلة فأصبحوا عصبة مترابطة تمضى سهراتها فى هذا المقهى كل ليلة.

مضى اللعب فاترًا بلا إثارة حقيقية وانتهى أحد أدواره، فاقترح جمال أن يلعبوا دورًا جديدًا، وقبل أن يتهيأ الآخرون للاستجابة بلا حماس لفت نظرهم شخص غريب الهيئة دخل إلى المقهى فى خطوات متثاقلة وعبر مائدتهم بوقار إلى مائدة خالية.. كان يرتدى بدلة سهرة أنيقة وربطة عنق حمراء.. ويلف حول رأسه عمامة هندية وردية اللون بدت مناقضة لمظهره الوقور فتساءلت عيونهم من يكون هذا الشخص الغريب؟

وبدأوا اللعب فى صمت ثم قال مصطفى فجأة:

ـ هيئة غريبة.. ما معنى هذه العمامة الهندية مع بدلة السهرة السوداء، فالتفت عبد الكريم إلى الرجل وراقبه مليًا ثم قال:

ـ لعله ساحر يقدم فقرته فى الملهى الليلى القريب؟ وجاء الجرسون.. بالشاى الساخن إلى الأصدقاء فسألوه عن الرجل فأجابهم:

ـ إنه قارىء طالع.. يأتى إلى المقهى أحيانًا فى الصباح ويجلس إلى

نفس المائدة.. ويقرأ الطالع لمن يريد لكنه متكبر ويطلب من الزبائن الانتقال إليه فى مائدته ويعاملهم بعظمة تغيظ!

فضحك مصطفى قائلاً: لعل ذلك من أصول النصب الذى يمارسه!

فعاد الجرسون يقول: كفاكم الله شره فهو مؤذٍ، وقد قال لصاحب المقهى إن زوجته ستمرض بعد نقطة، فلم يمض شهر حتى مرضت فعلاً مرضًا شديدًا وأجرت جراحة كادت تموت فيها.

فقال عبد الكريم برزانة: مجرد مصادفة.. فقال الجرسون وهو يتحرك: صدقت تنبؤاته السيئة لكثير من رواد المقهى حتى أصبحت أتشاءم منه!

ومضى حاملاً الصينية فتبادل الأصدقاء السخرية من الرجل وتنبؤاته "الصادقة" وعادوا للعب لفترة ثم قال جمال فجأة: لماذا لا ندعوه لقراءة طالعنا ونمتحن صدقه؟

وتحمس مصطفى للفكرة وكان أكثرهم ميلا للسخرية والمرح:

ـ فكرة نسلى بها وقتنا.. ونجد ما نضحك عليه! ولم يتحمس عبد الكريم للاقتراح، لكنه آثر ألا يعارض صديقيه فنهض داعيًا الرجل إلى الانضمام إليهم.. وعاد به بعد نقاش قصير فألقى عليهم تحية المساء

بتحفظ وقال بلهجة متعاظمة: أنا لا أنتقل إلى موائد الزبائن.. لكن صديقكما قال لى إنكم ثلاثة وأنا واحد فقبلت المجىء!

وشاعت السخرية المكتومة من كبرياء الرجل فى عيون الأصدقاء الثلاثة، لكنهم لم ينبسوا بكلمة احترامًا لمشاعره، وقطع جمال الصمت قائلاً له:

ـ نريد أن نعرف حظنا!

فأجابه باقتضاب: خمسة جنيهات لكل فرد.. وأى لمحة سخرية من جانبكم سأرد عليها بما يناسبها!

فدهش الأصدقاء وتبادلوا النظرات المعبرة ثم قال جمال: لماذا تقول ذلك.. نحن صادقون فى رغبتنا فى معرفة حظنا..

فأجاب الرجل: عيونكم تنطق بغير ذلك.. لهذا أردت تحذيركم وكأنما أحس الرجل بأن "مصطفى" هو أكثرهم استعدادًا للسخرية منه فاختاره عن قصد ليبدأ به مهمته ومد إليه يده طالبًا كفه.. وراح يدقق فيها باهتمام ثم قال:

ـ زوج وأولاد!

فهمَّ مصطفى بأن يقول له إنه لم يأت بجديد لأن دبلته الذهبية تنبئ عن زواجه لكن الآخر لاحقه بكلماته المذهلة:

ـ وكأنك لـم تتزوج ولـم تنجب.. فالزوجة كثيرة الشجار والـخصام والأولاد منحازون إليها دائمًـا!

فبهت الأصدقاء الثلاثة.. وتبادلوا نظرات الدهشة التى راقبها القارئ شاعرًا بانتصار كأنما يقول لـهم: الآن ستبدأون فى التعامل معى بجدية واحترام!

ثم واصل حديثه:

وفى العمل: واحدة ليست من دمك تستريح إليها بل الحق إنك واقع فى غرامها، وتتمنى لو كانت فى بيتك فى مكان التى تنغص عليك حياتك.

فاحمر وجه مصطفى قليلاً وواصل الآخر حديثه:

ـ وطريقـك معها مسدود.. فـزوجها لـن يطلقها رغم الـخلافات بينهما ولا هـى تريد الطلاق منـه حبًـا لأطفالـها.. وهى تستجيب لك أحيـانًا وتعـود لرشدها فى معظم الأحيان وتنبذك.. ولا تستجيب لتوسلاتك ودموعك! وأنتما الآن فى حالة تفاهم مؤقتة لكنها لـن تطول.. وسوف تلفظك من حياتـها إلى الأبد.. وسوف تبكى أنت بلا نـهاية! فوجم مصطفى وسحب يده من يد الرجل فقال له الآخر:

ـ مازالت فى كفك خطوط أخرى!

لكن مصطفى أخرج حافظة نقوده ونقده أجره وهو يقول:

ـ شكرًا.. اكتفيت بهذا القدر!

وتناول الرجل النقود ووضعها فى جيبه باسمًا وشاعرًا بالانتصار على من توسم فيه العداء، ثم اتجه إلى جمال فمد إليه كفه باستسلام وبعد لحظات قال له:

ـ وحيد فى الدنيا تبحث عن الأمان والحنان! فلم يتمالك جمال نفسه وكان أقربهم إلى روح المهادنة وقال له بعفوية:

ـ كيف عرفت ذلك؟

فبادره عبد الكريم بالإجابة قائلاً له بهدوء يتفق مع تحفظه وميله دائمًا لتحكيم العقل:

ـ هذا واضح.. فأنت لا ترتدى دبلة الزواج! فرمقه الرجل بنظرة تحدٍّ قصيرة ثم عاد لقراءة الكف المبسوطة:

ـ ضيَّعت حبك الحقيقى فى أيام البراءة والسعادة وطالما توسلت إليك أن تفى بوعدك لها وتتقدم لخطبتها لكى تنقذها من الزواج ممن لا تحب.. ولطالما شجعتك وهوَّنت عليك مصاعب البداية، لكنك ترددت وتخاذلت وتركتها تتزوج من لا تحب وندمت على ذلك كثيرًا ومازالت تندم حتى الآن!

فتضرج وجه جمال بالاحمرار وردد نظره بين صديقيه حائرًا فعاد عبد الكريم إلى التعليق:

ـ لا تخلو حياة أعزب فوق الثلاثين من قصة مماثلة! فرمقه الرجل بنظرة أخرى كالإنذار ثم قال:

ـ ومن عجب أنك مازلت تدفع ثمن غدرك بـها حتى الآن وكما بكت فتاتك بين يديك مستعطفة شهامتك بكيت أنت بين يدى أخرى أحببتها بعـد سنوات مستعطفًا وراجيًا فلم ترحم ضعفك وفضلت عليك شخصًا آخر.. ولعلها قد أنجبت منه الآن لكنك مازلت تأمل فيها وتنتظر عودتها من السفر.

فسأله جمال ذاهلاً: أى سفر؟

فأجابه: سفرها مع زوجها إلى حيث يعملان الآن فى الخارج فلم يدر جمال بنفسه إلا وهو يسأله بلهفة "مؤلمة":

ـ وهل أنجبت حقًا من زوجها؟

فقال له الآخر بتؤدة: لا يبدو هذا واضحًا فى خطوط كفك.

فعاد جمال يسأله بنفس الاهتمام: وهل ستواصل حياتها مع زوجها للنهاية؟

وتنبه إلى نظرات صديقيه المشفقة فجأة فأحس بالخجل وأطرق برأسه فى حين أجابه الرجل باقتضاب: نعم.

وسحب جمال كفه من يد الرجل ونقده أجره والتفت هو إلى الصديق الثالث منتظرًا أن يمد إليه كفه، لكن عبد الكريم انكمش فى مقعده قائلاً له:

ـ شكرًا.. لا أريد!

فقال له الرجل: إذن ستدفع أجرى كاملاً لأنى دعيت لقراءة طالع ثلاثة أشخاص لا اثنين!

وفكر عبد الكريم لـحظة أن يعترض، ويرفض لكنه آثر السلامة وأخرج حافظة نقوده.. وبعد أن نقده "أجره" قال له: خبرنى من فضلك.. كيف تدعى العلم بالـمستقبل؟ فأجابه الرجل فى ثقة: موهبة من عند الله! فعاد عبد الكريم يقول: لكن الله لم يعط علمه بالغيب لأحـد.. فتهيأ الرجل للنهوض وقال زاهدًا فى النقاش:

ـ لكن هكذا تجرى الأمور معى دائمًـا وليس عندى تفسير ذلك!

ونهض من مقعده فوضع عبد الكريم يده فى ذراع الرجل قائلاً: سؤال أخير من فضلك.. هل قرأت لنفسك طالعك؟ فأجابه الرجل واقفًا:

ـ نعم قرأته وقال لى إنى من المحظوظين فسأعيش طويلاً وسأحتفظ بصحتى حتى آخر لحظة من عمرى!

ثم قبض على يد عبد الكريم فجأة وقلبها فى لمحة وتأمل كفه للحظات قبل أن يتيح له فرصة الاعتراض ثم قال له: لا أقبل أن أتقاضى أجرًا دون عمل.. لهذا سأقرأ لك خطًا واحدًا من خطوط كفك: سواد سترتديه قريبًا بعد نقطة أو نقطتين.. وستبكى كثيرًا وقبل أن تجف الدموع.. ستتجدد الأحزان مرة أخرى بسواد جديد! آسف لذلك، لكن هذا ما تقوله كفك!

ثم أخلى يده واتجه بخطوات متعاظمة إلى خارج المقهى.

ووجم عبد الكريم.. وخيم الصمت على الأصدقاء الثلاثة لفترة وتبادل جمال ومصطفى النظرات المتفاهمة.. ثم قال مصطفى متخيرًا كلماته:

ـ إنهم يحفظون عبارات تقليدية مبهمة يكررونها لمن يلجأ إليهم فيفسرها كل إنسان بما يتلاءم مع ظروفه، وسانده جمال فى مهمته قائلاً:

ـ كما أنهم يعتمدون على فراستهم فى تحليل شخصيات المتعاملين معهم فيوهمونهم بقدرتهم على معرفة الماضى.. والمستقبل! لكن عبد الكريم كان قد استسلم تمامًا للانقباض فقال بوجوم:

ـ لقد حكى عن حياتكما الشخصية مالا يعرفه أحد غيرنا.. فقال مصطفى مهونًا الأمر: لعله تسقَّط بعض أخبارنا من جرسون المقهى أو من ماسح الأحذية، ونحن كثيرًا ما نتحدث بلا احتراس عن شئوننا فى جلساتنا الخاصة اليومية.

فواصل عبد الكريم وجومه وقال:

ـ وتنبأ بمرض زوجة صاحب المقهى فمرضت وكادت تموت كما أبلغننا الجرسون. فأجابه جمال منفعلاً: هل تصدق هذه الخزعبلات حقًا.. وبدا واضحًا أن اللعبة التى أرادوا بها تسلية الفراغ قد انتهت نهاية محزنة.

فرغب مصطفى فى تغيير الجو الكئيب وقال متظاهرًا بالمرح:

ـ أنا الذى أقنعته بالمجئ معى.. وعقابًا لى أدعوكما لعشاء من الفتة والكوارع يناسب هذه الليلة الباردة.. هيا بنا.

فقال عبد الكريم بصوت خافت: ليس الليلة فلقد انقبض صدرى من حديث هذا الرجل. فقال مصطفى: هل صدقت هذا النصاب حقًا!.

وشاركه جمال فى محاولة التسرية عنه وإقناعه بالنهوض معهما للعشاء وكانا قد نجحا أخيرًا فى ذلك حين دوى فجأة صوت كالصرخة المولولة لفرملة إطارات سيارة تلاه صوت مزعج لارتطام شديد مصحوب بصرخات مفزعة.

وسكتت أصوات المتحدثين بالمقهى ثم صاح أكثر من صوت: يا ساتر يا رب! وهرول بعض الرواد إلى خارج المقهى لاستطلاع

الأمر وبعد لحظات رجع إلى المقهى شخص اتجه مهرولاً إلى تليفون وتلاه آخرون اتجهت إليهم أنظار الجالسين فقال أحدهم:

ـ يا إلهى حادث تصادم مروع على بعد خطوات من المقهى!

وقال آخر: سيارة مرسيدس مسرعة صدمت رجلاً كان يعبر الطريق غافلاً عن الإشارة الحمراء!

وقال ثالث: مازال فيه نبض الحياة لكنه حتى لو نجا من الموت فسيمضى باقى عمره كسيحًا على الأرجح.. مسكين!

وقال رابع: مؤكد أنى رأيت هذا الرجل فى المقهى من قبل فهيئته غريبة ولا تمحى من الذاكرة ببدلته السوداء.. وعمامة رأسه العجيبة!

فتصاعد اهتمام الأصدقاء الثلاثة بما سمعوا إلى القمة وتبادلوا النظرات الطويلة المترددة بين الدهشة.. والإشفاق.. والارتياح.. ثم نهضوا واتجهوا إلى خارج المقهى متجنبين النظر ناحية الزحام الملتف حول المصاب الملقى على أرض الطريق.

راحت الزوجة الشابة تعوِّض افتقادها لعطف زوجها واهتمامه بالكتابة فى دفتر صغير تجلس إليه من حين لآخر فى المساء، وتسجل فيه أفكارها ومشاعرها وخطرات نفسها وتحتفظ بهذا الدفتر الثمين فى دولابها، وتحرص على ألا يطلع عليه زوجها. ورآها زوجها ذات مساء مشغولة بالكتابة فى الدفتر الصغير، فسخر من اهتمامها بهذه الأوراق بدلاً من استثمار وقتها فى "شيء مفيد" للأسرة.. وسألها: لماذا تضيعين وقتك فى هذا العبث؟ فنظرت إليه ساهمة ثم قالت له بأسى: لو كنت أستطيع أن أتكلم معك.. لما لجأت إلى الكلام مع الورق!

فغضب "للإشارة" التى طالما ألمحت له بها فى مناسبات سابقة وقال لها:

ماذا تكتبين فى هذه الأوراق:

14 فأجابته فى هدوء: أكتب فيها كل ما لا أستطيع أن أقوله لك وجهًا لوجه لانشغالك عنى.. أو لخوفى من سخريتك منه إذا حدثتك عنه. ولم يقتنع الزوج بمبررات زوجته.. ولم يجد فى نفسه دافعًا قويًا لأن يحاول الاقتراب من عالمها الخاص الذى اتخذته لنفسها منذ عامين أو أكثر.. وبدا له أن من الأفضل

لسلام الأسرة ألا يعترض عليه وواصل أسلوب حياته وانشغاله عن زوجته بعمله وعلاقاته الاجتماعية.. واتسعت الـهوة بينهما شيئًا فشيئًا حتى لـم يعد يـجمع بينهما شىء إلا روابط الأسرة التقليدية والطفل الذى جاء ثمرة للحب القديم.

ثم عاد الزوج بعد يوم مرهق فى العمل إلى البيت عند الأصيل، فوجد على مائدة السفرة ورقة صغيرة من زوجته تنبئه فيها أنها ستغيب حتى المساء مع طفلها لحضور حفل ميلاد أحد أطفال الجيران.. ووجد الدفتر الأزرق الذى تسجل فيه زوجته خواطرها منسيًا على المائدة.. وقدر أنها كانت تكتب فيه كعادتها ونسيته فى مكانه على غير عادتها. ونظر إليه باهتمام خفى.. وتردد فى أن يفتحه محاولاً أن يحتفظ لزوجته بخصوصيتها، لكن فضوله غلبه فى النهاية ففتحه بحرص وبدأ يقرأ خواطرها، ففوجئ بأنها قد كتبت فيه على صفحات عديدة بتواريخ مختلفة كلمات حارة تعبر بها عن افتقادها للحب فى حياتها.. ويأسها من إحياء الحب القديم الذى جمع ذات يوم بينها وبين زوجها، ولاحظ تصاعد نغمة الشكوى من جفاف عاطفة زوجها تجاهها يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر إلى أن وصلت الكلمات الصريحة إلى تصوير جفاف عاطفتها هى أيضًا تجاهه بعد أن طال تجاهله لمشاعرها واحتياجاتها العاطفية. وتصبب العرق من جبهته وهو يقرأ هذه الكلمات المنذرة بالخطر.. ثم خفق قلبه بشدة وأحس بلهب الغضب يحرق صدره..

حين قرأ كلمات أخرى أكثر جرأة تتحدث فيها زوجته بصراحة جارحة عن عيوبه.. وانشغاله عنها وتجاهله لمشاعرها واحتياجاتها النفسية والعاطفية.. وتقول فيها بصراحة إنه بذلك قد مهد "أرضها" لاستقبال أول بذرة حب حقيقي ستلقى فيها، وأن هذه البذرة ستنمو وستثمر زهرة جديدة فى حياتها المجدبة ولن تستطيع أن توقف نموها إذا سقطت على أرضها العطشى.. لأن زوجها قد حرث لها الأرض ومهد لها الجو الملائم بتوقفه عن ريها بماء حبه منذ فترة طويلة، وتصاعد الدم إلى وجهه وهو يقرأ عن "حلمها" بأن تلتقى ذات يوم بهذا الفارس المجهول الذى سيظهر فجأة أمامها.. ويبعث الحياة فى مشاعرها وتقول عنه فى أوراقها "بلا حياء" سأقاومه طويلاً لكنى سأنهزم أمامه فى النهاية.. وسأسلم له رايتى وأمضى وراءه تاركه كل شىء ورائى.

وتوقف الزوج عن مواصلة القراءة وجلس ذاهلاً يفكر فى زوجته.. وفى حياته معها.. وتساءل فى باطنه مرارًا عما تعنيه هذه الكلمات الجارحة من دلالات خطيرة.. هل تعنى أنها قد كرهته وانتهى الأمر ولم تعد تحبه كما كان يتصور.. لقد خانته بأفكارها على الورق فهل خانته أيضًا على أرض الواقع.. هل ظهر هذا الفارس المجهول الذى ستمضى وراءه تاركة كل شىء.. وماذا عنه وعن طفلها نعم إنه مشغول عنها بعمله وطموحه.. لكنه يشقى ويعمل من

أجلها أيضًا فمتى بدأت إبحارها فى الاتـجاه البعيد عنه، لقد التقى بـها منذ تسع سنوات حين انتقلت إلى الشركة التـى يعمل بـها.. وأعجب بجمالـها وهدوئها وسمعتها الطيبة فاقـترب منها وركز كل جاذبيته عليها حتى بـدأت تستجيب، واعترفت له بحبها، وتم الزواج على عجل ومضت الـحياة بينهما جـميلة معطرة بعبق الـحب والعطف خلال الأعوام الثلاثة الأولى، واستجاب لرغبتها الملحة فى الإنجاب رغم مـحاولته تأجيله لسنوات أخرى حتى لا تعوقه مسئولية الأطفال عن تـحقيق طموحه فى الحياة العملية.. فلقد كان يـحلم بمنصب مدير الـمبيعات فى شركته الكبرى، ويـجهد نفسه فى العمل وفى الاقتراب من رؤسائه ومـجاملتهم وأداء خدمات إضافية لـهم فى العمل وخارجه على حساب الوقت المخصص لزوجته أملاً فى تـحقيق هذا الحلم الذى يرى نفسه جديرًا به.

وشاركته زوجته طموحه فى البداية وشجعته عليه، لكنها طالبته بألا ينسى واجباته تـجاهها وتـجاه طفلهما الوليد الذى تـخلت هى عن طموحها فى العمل من أجله واستقالت من عملها لتتفرغ لتربيته ورعاية زوجها. لكن عجلة الطموح جرفته فى دورانها الهادر حتى النهاية.. فلم تعد زوجته تراه إلا لحظات فى المساء مجهدًا شاكيًا من الصداع وآلام الظهر وتيبس المفاصل.. ولم تعد مائدة الغداء أو العشاء تجمعهما معا أكثر الأيام، فهو إما فى لقاء عمل أو فى زيارة مع مديره

لأحد العملاء.. أو مرهق يتناول عشاءه معها خطفًا وهو يغالب النوم، ويغادر المائدة وهى لم تكد تبدأ عشاءها ويهرع إلى غرفة النوم فيستلقى على الفراش كالقتيل ويصحو فى السادسة صباحًا.. وينصرف إلى عمله وهى مازالت نائمة.. فتمضى معظم أيامها وحيدة تنتظره.. وتتلهف على مكالمة تليفونية منه يقول لها فيها كلمة واحدة تذكرها بأنها إنسانًا خاصًا وعزيزًا لديه.

أما فى عطلة نهاية الأسبوع فهو يستسلم للنوم معظم أوقات النهار أو ينهى أعماله المتأخرة فى البيت أو يتودد إلى رئيسه فى العمل ويقوم نيابة عنه باستقبال عميل فى المطار.. أو توديع عميل آخر.. أو تنظيم برنامج زيارة لبعض عملاء الشركة.. وأسبوعًا بعد أسبوع يعد زوجته بأنه سوف يخلى نفسه من كل التزام فى عطلة نهاية الأسبوع لكى يرافقها مع طفلهما فى الخروج إلى حديقة الأطفال.. أو تناول طعام الغداء فى النادى أو يصطحبها إلى السينما أو إلى زيارة الأهل أو الأصدقاء كما كانا يفعلان فى بداية زواجهما.. فتمضى الأيام دون أن ينجح فى الوفاء بوعده مرة واحدة وتزداد فترات عدم التقائهما.. وينحصر الحديث بينهما فى شئون البيت والعمل والطفل والمدرسة والالتزامات المادية.. وتزداد فترات الصمت بينهما خلال اللقاء.. لكنها رغم ذلك كانت حريصة دائمًا على العناية بكل شئونه.. وبإعداد ملابسه.. وترتيب حقيبة أوراقه.. فمتى بدأ تحولها عنه؟

لقد ظهر هذا الدفتر اللعين فى يدها منذ حوالى عامين، ويومها سخر من محاولاتها للكتابة، فغضبت منه وذكَّرته بأنها كانت تكتب فى مجلة الكلية أشعارًا وكلمات رقيقة.. لكن مشاغل الزواج والإنجاب شغلتها عن هوايتها.. ومن حين لآخر بدأ يراها تكتب فيه.. وترفض إطلاعه على ما تكتبه.. هل يحبها؟ نعم يحبها ولقد كان يعتقد أن الحب وحده يكفى للاحتفاظ بمشاعر زوجته، فعرف الآن ومن هذا الدفتر اللعين أنه لا يكفى فى حد ذاته، وإنما لابد أيضًا من التعبير عنه بكل وسيلة لمن يحب حتى لا يفقده.. وهو لم يساوره الخوف من أن يفقد حب زوجته فلم يحاول الحفاظ على اشتعال جذوة الحب بينهما بما يلقيه عليها وإنما من قطع الخشب الجديدة التى تزيدها اشتعالاً.

أشعل سيجارته الثالثة.. وتساءل: هل يعتبرها خائنة؟ إنها أمينة مع نفسها وإحساسها بالمسئولية العائلية ومسئولية الطفل لا يسمحان لها إلا بأن تكون مخلصة ولو طالت معاناتها.. فهل يدعوه ذلك للاطمئنان؟ وماذا بعد الاطمئنان.. هل يستطيع استعادتها لو أراد.. وماذا لو حقق كل طموحه فى الحياة وخسر زوجته وطفله.. هل سيسعده ذلك وهل يعوضه عن حب زوجته القديم له وحنانها ورفقها به؟!. لقد أعفته من كل مسئولية عن البيت والطفل وشئون الحياة لتوفر له التفرغ الكامل لعمله.. فحتى ملابسه تختارها له

بعناية.. وهى التى تتابع دراسة طفله فى البيت وفى المدرسة.. وهى التى تصطحبه إلى الطبيب ليتلقى الرعاية الطبية اللازمة فى مواعيدها الدورية.. وهى التى تقوم بنظافة البيت وتجميله وتنسيقه بنفسها.. وتزرع الزهور فى كل مكان.. وتتفنن فى توفير نفقات البيت فيبدو فى أجمل صوره بأقل التكاليف.. وحين يحتاج إليها لترافقه فى زيارة لبيت أحد رؤسائه تحظى باحترام الجميع لجمالها ومظهرها المحترم ورقة تعاملها مع الآخرين، فكيف لم ينتبه إلى هذه "الثروة" التى بين يديه فكاد يفقدها بالتجاهل والاطمئنان الغافل إلى أنها ملك يمينه؟ ولماذا لا تعرف قيمة الأشياء إلا حين نوشك أن نفقدها ويتهددنا خطر الحرمان منها.. وكيف يستطيع أن يسترد قلبها الذى يهفو الآن بصراحة مؤلمة إلى فارس جديد يحيى مشاعرها العاطفية اليابسة، ويلبى احتياجاتها النفسية التى توقف شريك الحياة عن إشباعها وتلبيتها.. وهل فات الأوان حقًا.. أم مازالت الفرصة قائمة؟ هل ستصفح وتنسى وتتسامح كما اعتادت أن تفعل وكما تسامحت معه من قبل حين ترامت إلى أسماعها أخبار "اهتمامه الزائد" بشقيقة مديره المطلقة التى تعمل معه بنفس الشركة.. والذى يعلق عليه أمله فى حركة الترقيات القادمة؟ لقد بكت طويلاً وواجهته مواجهة صاخبة بما سمعت ولم تقتنع اقتناعًا كاملاً بدفاعه عن نفسه أو مبرراته لهذا الاهتمام.. ومع ذلك فقد آثرت بعد فترة

أن تقبل اعتذاره.. ووعوده لـها بأن يتوقف عن هذا "الاهتمام" مهما كانت دوافعه ومـرت السحابة بسلام، وتصور أنـها قد عبرت سماءها إلى الأبد حتى قرأ هذه الـمذكرات اللعينة لقد اعتبرتـها خيانة للحب الذى ضحت من أجله بعملها ومستقبلها وطموحها الشخصى.. وسجلت فى أوراقها أنـها لـم تعد تطيق أن يلمسها زوجها بعد أن عرفت أنه يستطيع حين يريد أن يوفر الوقت اللازم لكى يـهتم بامرأة أخرى سواها وهو الذى يبرر إهماله لـها دائمًـا بكفاحه فى العمل لتوفير حياة أفضل لـها ولطفلهما.

وعلى هذه الصفحة بالذات فتح الدفتر الصغير وظل ممسكًا به فى يده لفترة طويلة مستسلمًـا لأفكاره وخواطره الـمقلقة.. وفكر طويلاً فى أن يواجـه زوجته بها عند عودتـها وبالصفحة الأخرى التى تتحدث عن شوقها الأليم للفارس المجهول.

واستراح لفكرة الـمواجهة.. وقرر أن يتحمل تبعاتـها للنهاية حتى ولو كان الانفصال هـو الثمن، فلابـد من أن توضح لـه معنى هذه الكلمات الـخطيرة، ولابد أن يتأكد من أن هذا الفارس الـمجهول لـم يظهر ومن أنـها سترفضه حين يظهر.

ومضى الوقت ثقيلاً وهو جالس فى مقعده.. وإصراره على الـمواجهة ثابت لا يتغير. ثم عادت صور حياته مع زوجته الـجميلة

تتوالى أمام مخيلته فرآها وهى تبدو كالملاك الرقيق فى فستان الزفاف.. ورآها وهى تدخل غرفة الولادة وقد ابيض وجهها من الخوف وتتشبث بيده راجية ألا يفارقها خلال الجراحة.. ورآها وهى تغسل له شعره بالشامبو مرة كل أسبوع ولا تنسى ذلك أبدًا مهما كانت مشاغلها.. ورآها وهى تنحنى على الأرض لتكوى له قميصه ومنديله كل يوم مفضلة هذا الوضع المتعب على استخدام مائدة المكواة.

ورأى نظراتها العاتبة وهى تختلس النظر إليه حين يخذلها بانتظام كل أسبوع معتذرًا لها عن عدم مصاحبتها فى زيارتها لأمها.. أو للسينما.. أو لحديقة الأطفال رغم وعوده السابقة لها، وتذكر نظراتها الحزينة وهى تكتب خواطرها فى دفترها السرى، وترمقه بلوم صامت وهو يتركها فى غرفة المعيشة فى الثامنة مساء ويدخل إلى غرفة النوم ليستغرق فى النوم العميق ليلة بعد أخرى رافضًا رجاءها له بأن "يبقى معها" بعض الوقت "ليتحدث" معها قليلاً.

تذكر كل ذلك فبدأ إصراره على المواجهة يتراجع شيئًا فشيئًا ورغبته فى استعادتها وإنقاذها من هذا الفارس المجهول تتزايد تدريجيًا.

ثم أفاق من أفكاره فجأة على سماع صوت المفتاح يدور فى باب

الشقة.. فأسرع يغلق الدفتر الصغير ويضعه فى مكانه بحرص.. ثم غادر مقعده إلى مدخل الشقة.. مستجمعًا إرادته على استعادة زوجته وبدء صفحة جديدة معها والدفاع عنها حتى الرمق الأخير.. واقترب من الباب فصاح الطفل مهللاً لرؤية أبيه.. وأجابه بابتسامة عريضة ثم تـجاوز الطفل إلى زوجته فأخذ بجمالـها الذى خيل إليه أنه قد ازداد تألقًا وبريقًا كأنها يراه ويحس به للمرة الأولى.. واقترب منها مبتسمًـا وقبلها بحنان فى خدها وقال لها بصوت جديد لـم تسمعه منه منذ سنوات: البيت لا يطاق دونك.. لماذا غبت كل هذا الوقت؟ فتورد وجه الزوجة وضحكت وقالت له بسعادة ومرح:

ـ أردت العودة منذ ساعة.. لكن تامر تشبث بالبقاء مع أصدقائه.

ثم توقفت عن حديثها كأنها تذكرت شيئًا هامًا وقالت له: لكن ماذا قلت عن البيت فى غيابى؟ هل هذا صحيح؟ إنك تستحق عشاء فاخرًا الليلة مكافأة لك على هذه الكلمات الحلوة التى كدت أنساها.

ثم تركته بحماس وابتهاج واتجهت إلى المطبخ فراقبها فى صمت وأمل وقال لنفسه: طيبة وجميلة كعهدها.. فكيف كدت أضيعها من يدى؟!

لكل شيء نهاية.. فمتى ينتهى هذا العذاب؟

تردد السؤال الحائر فى خاطره وهو يتجه بخطوات ثقيلة إلى باب الشقة شاعرًا بالهوان والعجز والإحباط، وعند الباب استدار ليصافح صهره فقال له الرجل مهونًا:

ـ الصبر طيب فلا تفقد صبرك ولا تحزن!

فغمغم مودعا الرجل بكلمات مبهمة وصافحه وانصرف!

صهره رجل طيب وهو زميل سابق له فى نفس العمل لكنه للأسف ضعيف أمام زوجته وحنون إلى حد زائد مع ابنته.. ولطيبته واستقامته فى العمل والحياة رغب فى مصاهرته.. وترصد ابنته حين كانت تأتى لزيارته فى العمل من حين إلى آخر.. وافتعل المناسبات للحديث معها وتطوع لإعطائها دروسًا فى الإحصاء خلال دراستها بكلية التجارة.. وخطب ودها حتى هيئ إليه أنها ترحب به.. فانفجر ينبوع الحب الصامت فى قلبه وفاتحها برغبته فيها وتعاهدا على الارتباط.. هل أحبته كما أحبها؟ لا يستطيع أن يجزم بذلك "الآن" أما وقتها فقد خيل إليه أنها تبادله حبًا بحب.. فهى جميلة.. وتلقائية تعبر بطفولية عما تحس به ولا تتعمد إخفاء مشاعرها..

حتى ما بدا له من سذاجتها والتصاقها المعيب بأمها الذى أثار شك والدته فى أن تكون قادرة على تحمل مسئولية الزواج، عدَّه وقتها من مميزاتها فهى قليلة الخبرة بالحياة ومن الطبيعى أن تستمد خبرتها وحكمتها من أمها.

لكن الأيام قد أثبتت له صدق فراسة أمه وبعد نظرها فقد أرهقته خلال فترة الخطبة بالمطالب.. ولم تبد أى استعداد للتنازل أو التضحية بشىء.. ومن ورائها وقفت أمها تؤيدها وتشجعها على ألا تتنازل عن شىء.. حتى لا تندم على "التفريط" فى المستقبل! فحتى الشقة التى أعدها للزواج، واعتبرهـا أهم مؤهلاتـه، اعترضـت عليهـا لسـبب لا يخطر على بال أحد غيرها، وهو أنها بعيدة بعض الشىء عن مسكن أسرتها! ووقف الأب عاجزًا عن إقناعها أما أمها فلقد كانت بالطبع صاحبة الفكرة.. وبدلاً من أن يتزوجا على الفور أضاع شهورًا ثمينة فى البحث عن مشترٍ لشقته التى مازال يدفع أقساطها.. وأضاع أيامًا طويلة فى التجول فى الشوارع المحيطة بمسكن أسرتها والجرى وراء السماسرة حتى استطاع بمعجزة أن يحصل على شقة أكثر قربًا.. وتنفس الصعداء حين لاقت قبولها وإن كان قد آلمه أنه لم يفز بكلمة إعجاب أو شكر ولم يتجاوز رضاؤها عن الشقة أن قالت له إنها "لا بأس بها".

إرضاء من لا يرضى بسهولة مهمة شاقة.. فكيف إذا كنت تحبه

وتسعد برضائه الشحيح ولأن الحب لا يسمع إلا لصوت القلب.. فقد تغاضى عن انتقادات أمه لها واتهامها له بالضعف.. وإنذارها له بأنه سيكون خاتمًا فى أصبع فتاته المدللة.. وكيف لغريق الحب أن يأمل فى النجاة نجاة.

نعم مدللة.. وهشة.. وعاطفية وفكرتها عن الحياة ليست جادة. لكن الزواج شىء آخر وسوف تكتسب خبرة الحياة وتتعلم العطاء مع الأمومة.. وستعزف أنغام السعادة لحنها الأبدى فى حياته.

وتزوجا.. وتكشفت له بعد الزواج عن قطة جميلة ناعمة الشعر دافئة الملمس تريد أن تقضى معظم أوقاتها بلا عمل سوى التمسح فيمن يحبها! وتمضى معظم يومها فى الفراش.. وتنتظر عودته بصبر نافد، فما إن يجىء حتى يجدها مرتدية ملابسها استعدادًا للخروج إلى بيت أمها لتناول الغداء مع أبويها.. أو إلى النادى أو إلى بيت أسرته استجابة لدعوة غداء ولا شىء فى مخيلتها.. سوى الرغبة فى التسلية والنزهة.. وكلام الحب!

لم تخف عنه عيوبها لكنه أمل أن تتغير الأحوال بالمعاشرة ومع ظروف الحياة، فمضت الأيام دون أن تتغير وحين حملت أشعرته بأنه ينبغى أن يتحمل معها عناء الحمل.. لأنه المسئول الأول عن "الجريمة".. وأرهقته بالبكاء لأى عارض طفيف.. وبانحراف المزاج

لأى تغير.. وبالحساسية المفرطة تجاهه وتجاه كل شىء بدعوى "الظروف الخاصة" التى تمر بها، ومن ورائها أمها تساندها وتزمجر فى وجهه إذا بدت منه لمحة شكوى، وكأنما قد رجع إلى حياة الأعزب من جديد.. فقد أمضت معظم شهور الحمل فى بيت أمها لتحظى برعايتها الخاصة وتوقف دوره عند توفير نفقات الأطباء والملابس الواسعة.. والذهاب إليها كل مساء فى بيت أمها ليصحبها للمشى حوله.

واقترب موعد الـولادة.. فأعلنت الأحكام العرفيـة فى حياته وفى بيت أسرتـها.. وجاء "وليد" فطار به فرحًا. وبعد شهرين من الولادة عادت إلى مسكنه الـخالى للمرة الأولى، فأشعل شموع الـحب والفـرح بعودتـها.. وأضيف إلى أعبـائه عبء الطفل الـجديد وأمراضه.. ومسئوليته عن توفير كل متطلباته.. وتراوحت أيامه بين اصطحابـها مع الطفل للطبيب.. واصطحابـها إلى بيت أسرتـها لتمضى فيه بضعة أيام تستريح فيه من "عناء" رعاية الطفل وحدها بلا عون من أحد!

ولم يشك رغم ذلك من شىء وحرص على تكتم الكثير من معاناته مع القطة الناعمة عن أمه وأسرته.. ولم يرد أن يكدر على نفسه لحظات سعادته القليلة مع قطته المحبوبة حين تصفو السماء.. وتنقشع سحب العناء.

ويومًا عاد إلى بيته مبتهجًا وأبلغها بالـخبر الذى ترقبه طويلاً، فأسر إليها أن دوره فى الترقية إلى منصب مدير أعمال قد جـاء، وأنه سينقل إلى موقع العمل على بعد ساعتين ونصف الساعة فقط من القاهرة.. وسيكون لهما حق الإقامة فى مسكن العائلات الواسع بالـموقع.. والتمتع بامتيازاته.. والـحق فى إجازة لمدة 4 أيام كل 12 يومًا، فخبت فرحته سريعًا حين تبين له أنها رغم ابتهاجها بالـخبر لا تفكر فى مصاحبته إلى موقع العمل.. وترى أن واجبه يملى عليه السفر وحيدًا ليوفر لأسرته مستقبلاً أفضل ولكن دون مشاركة منها! فهى كما يرى "ضعيفة الصحة" ولا تحتمل البقاء وحيدة بعيدة عن أمها فى موقع عمل مهجور فى الخلاء.. وليس من "الشهامة" أن يتوقع منها هذه التضحية لتضاف إلى ما تقدمه لطفلها وله من واجبات عائلية "شاقة"!

وأحس فى صوتها باحتجاج القطة الناعمة حين ينتزعها أحد من مرقدها الدافىء! ورغم يأسه من النتيجة فقد بذل أكثر من محاولة معها قوبلت بالرفض.. والغضب.. والاحتجاج.. واتهامه بأنه لا يحبها ولا يريد أن يضحى ببعض راحته من أجلها!

واستعان عليها بأبويها فجاءت النتيجة كما توقعها ولامته الأم على تفكيره "الأنانى" تجاه ابنتها.. ووقف الأب عاجزًا عن أى عون!

وفكر فى التنازل عن الترقية ورفض السفر إلى الموقع؛ فإذا بقطته الحبيبة تنفجر بالبكاء بعد أن "تأكد" لها أنه لا يحبها ويفضل راحته على مصلحة زوجته وطفله ومصلحة الأسرة. ولم يجد مفرًا من الامتثال والسفر وحيدًا إلى موقع العمل. وتشابهت أيامه فيه يومًا بعد يوم، فهو يمضى النهار كله فى الموقع، ويعود إلى المسكن الخالى فى الأصيل فيعد لنفسه طعام العشاء.. ويشاهد التليفزيون ويترقب مكالمة زوجته له من حين لآخر، ويسعد رغم احتجاجاته عليها بصوتها الدافىء حين يجيئه هامسًا: ـ هشام.. مساء الخير يا حبيبى.. بتعمل إيه دلوقت؟

ليلة بعد ليلة يترقب هذا الصوت الهامس ويسعد به رغم غضبه المكتوم من صاحبته.. ويرطب به جفاف وحدته ويثور لديه فى كل مرة نفس التساؤل الحائر: هل حقًا تحبنى؟ نعم تحبنى.. فكيف ترضى بالبعد عنى.

وكل أسبوعين يعود إلى عشه الصغير فيقضى مع زوجته إجازة قصيرة سعيدة تنسيه كل العناء.. وفى ختامها يسألها نفس السؤال بلهجة الاستجداء الذليل:

ـ ألن تأتى معى لنعيش معًا طوال الوقت كما تعاهدنا قبل الزواج.. فتمسح بيدها على شعره.. وتداعبه وترفض العودة معه، ثلاثون

شهرًا.. شهرًا بعد شهر وهو يعيش وحيدًا معظم أيامه لأن زوجته لا تريد أن تتحمل عناء الحياة فى موقع عمل لا يعد بالكثير من التسلية مع أن كل زملائه المتزوجين تصحبهم زوجاتهم فى الموقع.

وفى لحظة ضيق بوحدته فى المساء مع تأخر اتصال زوجته به لعدة أيام.. تساءل ماذا يحول بينها وبين المجيء إليه والإقامة معه.. هل هى رغبتها حقًا فى البقاء بجوار أمها.. وإشفاقها على نفسها من الحياة فى موقع عمل، أم ترى أنه قد "ظهر" فى حياتها ما يشدها إلى المدينة ويشغلها عنه؟

وواجه السؤال مرتعبًا للمرة الأولى: هـل يمكن أن تكون خائنة حقًا؟ وإذا كانت كذلك كيف تـجرى على لسانها كلمات الـحب التى تسقيها له بـهذه السهولة، وإذا كان اللسان قـادرًا على الكذب.. فهل تكذب العيـون والشفاه أيضًا؟ هز رأسه بعنف نافضًا الفكرة من رأسه وهو يطمئن نفسه قائلاً: لا ليست خائنة.. لكنها مدللة وأنانية وغير قادرة على العطاء لأحد.. وهى فى ذلك صورة مصغرة من أمها التى اعتادت الأخـذ من زوجها بـلا عطاء.. ولكن بلا خيانة أيضًا!

استراح إلى هذا التفسير وتعلق به.. وحين عاد إلى المدينة فى إجازته راح يرقب زوجته باهتمام خفى، كأنما يحاول أن يستكشف فى ملامحها ما ينفى له خواطره هذه أو يؤكدها.. ثم ألحت عليه هواجسه فصارحها

برغبته النهائية فى أن تصحبه إلى مقر عمله.. وإلا فإنه سيفسر رفضها هذه المرة بالتفسير الوحيد له.. وهو وجود غيره فى حياتها، فانفجرت الأزمة التى أربكت حياته خلال الفترة الأخيرة وبكت وانتحبت واتهمته بأنه لا يستحق إخلاصها.. وجمعت ملابسها وحملت طفلها وعادت إلى بيت أمها وطلبت الطلاق منه!

وقدر أنه لو عاد إلى مقر عمله بغير حل لمشكلته.. فلن يستطيع السيطرة عليها فيما بعد، وأبرق إلى عمله طالبًا إجازة لمدة أسبوعين.. وذهب إليها فى بيت أسرتها وحاول استرضاءها طويلاً بلا جدوى، وتحمل صواعق أمها بصبر يحسده عليه كثيرون.

وثابر على الذهاب إليها يومًا بعد يوم معتذرًا لها عن ظنونه.. وشارحا لها ظروفه النفسية الصعبة.. ومذكرًا إياها بالحب العظيم الذى يحمله لها، وفى نهاية الحديث يطلب منها العودة إلى بيتها فترفض وتطلب إعطاءها مهلة جديدة للتفكير! وأقصى ما كانت تبديه له من عطف حين يجهده الكلام معها أن تطلب منه عدم الانصراف قبل أن يتناول طعام العشاء.. وتعده له وترفض مشاركته فيه!

وفى ليلته الأخيرة بالمدينة بعد انتهاء إجازته ذهب إليها وأمضى اليوم كله معها ومع طفله.. وناشدها العودة إلى بيتها والمواظبة

على الاتصال التليفونـى به ليطمئن إلى أنـها قد صفحت ونسيت.. فلم تعده بشىء وتـمنت له سلامة السفر.

فغادر مسكنها مقهورًا ووالدها يودعه حتى الباب ويطلب منه الصبر!

نعم الصبر طيب كما قال الأب العاجز ولكن إلى متى يكون الصبر على القلب الذى لا يغيث ملهوفًا عليه.

وفى الصباح غادر مسكنه مكتئبًا وركب سيارة أجرة إلى موقف أتوبيس الشركة الذى ينقل العاملين به بعد انتهاء الإجازات، وصعد إليه وسار فى الممر حتى الصفوف الخلفية، وجلس فى مقعد خال بجوار النافذة. وتوافد الزملاء واحدًا بعد الآخر مع زوجاتهم وأطفالهم. وقبل أن يهم الأتوبيس بالتحرك صعدت إليه فتاة.. مريحة الوجه ترتدى بلوزة فضفاضة وبنطلونًا واسعًا وتحمل حقيبة جلدية سوداء، فحيت الجالسين ثم سارت فى الممر تبحث لنفسها عن مقعد خال حتى وجدته إلى جواره فوضعت الحقيقة فوق الحامل وحيته تحية الصباح وجلست وبغير أن يسألها وجدها تقدم له نفسها.

ـ المهندسة وفاء العجرمى.. موظفة جديدة فى الموقع!

فارتبك للحظات ومدَّ إليها يده مرحبًا: المهندس هشام عبد الرافع مدير أعمال بالـموقع، ثم انصرف إلى متابعة الطريق من النافذة

وتـحرك الأتوبيس، فأحس بأنـها تراقبه وتترقب الفرصة للحديث إليه، فالتفت إليها فلم تتردد فى سؤاله عن ظروف العمل فى الموقع وطبيعة الـحياة فيه.. إلخ. وأجابـها عن كل ما سألت بصدق وأبدى لـها استعداده لمساعدتـها على مواجهة مشاكل التأقلم مع موقع العمل الجديد، فإذا بها تقول له بصراحة أثارت إعجابه: سأحتاج إلى مساعدتك بكل تأكيد فأرجو ألا تحرمنى منها! وأكد لها ذلك ثم عاد لمراقبة الطريق والاستسلام لأفكاره وخواطره.. فإذا بهذا الخاطر الغريب يقفز إلى رأسه فجأة فيتعجب كيف ذهل عنه من قبل، وفى شىء من الحرج التفت إليها فوجدها مرحبة بالحديث إليه فسألها:

ـ هل ستقيمين فى الموقع وحدك؟

فأجابته ببساطة: ولم لا.. سأقيم فى مسكن العائلات وسأعود إلى أسرتى كل أسبوعين!

فبلغ به الاهتمام قمته.. وألح عليه السؤال المحرج فلم يستطع مقاومته وسألها: عفوًا لهذا السؤال الشخصى:

ـ هل أنت متزوجة؟

فأجابته ببساطة زادته ذهولاً: ولا مخطوبة.. ولكن جاءتنى فرصة هذا العمل بعد أن قضيت عامين بلا عمل عقب التخرج وكان شرط الوظيفة العمل فى الموقع بعد فترة الاختبار، فلم أتردد فى القبول

وواجهت معارضة أسرتى طويلاً وأقنعت أبى وأمى أن الحياة كفاح.. وأنى أستطيع المحافظة على نفسى فى أى مكان.. فسلما برغبتى فى النهاية!

فابتسم وهو يقول لها:

ـ الحياة كفاح حقًا وصدقًا.. لكنك تستحقين أيضًا كل الإعجاب!

وأحنت رأسها باسمة وشاكرة.. فأدار ناظريه إلى الطريق الموحش.. وغرق فى الصمت.. والاكتئاب.. وصوت صامت فى أعماقه يتمتم: الحياة كفاح فعلاً.. والحب أيضًا.. فما باله قد فقد كل معنى أصيل له عند تلك "القطة الأنانية".. المدللة!

هو إنسان ناجح فى عمله.. وسعيد فى حياته الخاصة.. زوجته جميلة ومخلصة وتتفانى فى رعايته وإسعاده، وطفلته الصغيرة تضفى على حياتهما مزيدًا من البهجة والسرور.. حتى متاعبها.. متاعب لذيذة تشحن حياتهما بالإثارة والاهتمامات الطريفة.

وعن وعى واختيار رأت زوجته أن تستقيل من عملها وتتفرغ لأسرتـها فطفلتها تـحتاج إلى رعايتها، وزوجها فى حاجـة إلى مساندتـها لـه لكى يـزداد نجاحًا وتألقًا.

فهو مدير لفرع أحد البنوك فى مدينتهما.. وواجبات عمله تفرض عليه أن يوثق علاقاته الاجتماعية مع كبار العملاء ورجال الأعمال ودعوتهم من حين إلى آخر إلى العشاء فى بيته، وتلبية دعواتهم فى المناسبات المختلفة.

وقد اختارت طموح زوجها وتقدمه، واستقالت من عملها فى بنك آخر تتقاضى منه مرتبًا كبيرًا لتساند زوجها فى نجاحه وعمله.

ويوم اتخذت قرارها قال لها زوجها مشفقًا:

- إنك تحملينني مسئولية كبيرة بتضحيتك بعملك ومستقبلك ومرتبك الكبير من أجلى.

فربتت على خده بحنان وقالت له: لا أحملك أية مسئوليـة..

وإنما أتحمل أنا مسئوليتى عن هذه الأسرة بإرادتى واختيارى.. فأحنى رأسه عرفانًا وشكرًا وازدادت روابطهما عمقًا وتشابكًا. وفى دعوات العشاء تألقت زوجته إلى جواره بجمالها الباهر وظرف حديثها ولباقتها الآسرة للقلوب.

وفى الدعوات المنزلية.. أدت دور ربة البيت المضيفة على أكمل وجه حتى قال له الرئيس الأعلى للبنك الذى يزور المدينة من حين إلى آخر لتفقد سير العمل فى الفرع:

ـ الاستقرار العائلى من أهم أسباب النجاح.. فاشكر زوجتك التى ساعدتك على هذا التقدم.

فاعترف له بأنه مدين بنصف نجاحه لإخلاص زوجته ومساعدتها له، وروى القصة لزوجته منتشيًا ومعترفًا بفضلها عليه. واقترب الصيف.. ورتب الزوجان كعادتهما كل سنة أن يقضيا الإجازة فى نفس القرية السياحية على ساحل البحر. وحجز الزوج نفس الشاليه الذى يقيمان فيه كل صيف.. ورتب موعد إجازته مع اليوم الأخير لانتهاء الدراسة فى مدرسة طفلتهما الوحيدة.. ونشطت زوجته فى إعداد الحقائب ومستلزمات الرحلة، وقضى الزوج يومه الأخير فى العمل متعجلاً نهايته ليلحق بزوجته ويبدأ الرحلة الممتعة بالسيارة، لكن جرس التليفون يدق فجأة ويجيئه صوت رئيس البنك يبلغه أنه

قــادم إلى الــمدينة فى بقطار العاشرة مساء لعقد اجتماع مع عدد من كبار الــمستثمرين بالــمدينة بشأن مشروع كبير.

ويعود إلى بيته فيجد زوجته قد أعدت كل شيء.. وصفَّت الــحقائب وراء الباب وارتدت قميصًا واسعًا وبنطلون الــجينز استعدادًا للسفر.. ويــحكى لزوجته ما حدث مشفقًا عليها من الإحباط.. لكنها تطيب خاطره.. وتقول له: لا بأس بالانتظار بضعة أيــام أخــرى. فيستغرق فى التفكير لعــدة دقــائق ثم يقول لــها فجأة: لا.. لن نؤجل السفر.. وسنسافر الآن فورًا.. وأطمئن على استقراركما فى الشاليه.. ثم أعود بالسيارة لأكون فى استقبال الــمدير فى الــمحطة وألــحق بكما بعد أيام.

وتعارض زوجته الفكرة بشدة وتذكره بضرورة أن يدعو رئيسه للعشاء فى بيته كالعادة خلال إقامته بالمدينة لكنه يصر على رأيه.. ويطمئنها إلى أنه سيتلافى الحرج بإبلاغ رئيسه بسفر أسرته إلى المصيف.. وربما راعى ظروفه وسمح له باللحاق بأسرته عقب نهاية الاجتماع مباشرة.

وحسم تردد زوجته بأن حــمل الــحقائب إلى السيارة.. ودعا زوجته وطفلته للركوب، وانطلقت السيارة فى رحلتها ووصل إلى القرية السياحية مع الغروب، ونقل مع زوجته الــحقائب إلى الشاليه

ثم قبَّل طفلته وزوجته مودعًا وانطلق عائدًا إلى المدينة. وقبل العاشرة مساء بدقائق كان يقف على رصيف القطار فى انتظار رئيسه.

وفى اليوم التالى انعقد الاجتماع الهام فى غرفة الاجتماعات بفرع البنك واستغرق العمل ساعات مرهقة.. وفى المساء دعا رئيس البنك المستثمرين وزوجاتهم إلى حفل عشاء بالفندق الذى يقيم به.. ووقف مدير الفرع إلى جانب رئيسه يرحب بالضيوف.. ففاجأته إحدى المدعوات وهى سيدة متوسطة العمر مثيرة الجمال تشارك شقيقها فى التجارة بالسؤال.

ـ أين زوجتك الجميلة التى سمعت عنها؟ فأجابها بأن أسرته فى المصيف وأنه فضل ألا يحرمها من الإجازة بسبب ظروف عمله.. فقالت له مبتسمة: لابد أنك تحبها كثيرًا وتحرص على راحتها!.

وانقضت ساعات الحفل بطيئة.. ولاحظ هو أن السيدة المثيرة تخصه باهتمامها معظم الوقت وتفتعل المناسبات للحديث معه. وفى نهاية الحفل قالت له إنها تحتاج مشورته فى مشروع جديد ترغب فى إقامته منفردة ودعته للغداء معها فى اليوم التالى.. فاعتذر عن القبول باضطراره لمصاحبة رئيس البنك وقت الظهيرة، ففاجأته بالاتجاه إلى رئيسه الواقف بين ضيوفه وبعد لحظات عادت إليه معه، ليبلغه رئيسه بأنه يعفيه من ملازمته له فترة الظهيرة لكى يستطيع تلبية دعوة السيدة

والحديث معها فى مشروعها الجديد مؤكدًا له أن مصلحة العمل أهم من كل شىء فأسقط فى يده.. ولم يستطع الاعتذار..

وفى اليوم التالى توجه إلى مسكنها فى موعد الغداء فاستقبلته فى كامل زينتها الصارخة ولاحظ قصر فستانها المثير الذى يكشف عن معظم ساقيها.. ورحبت به بحرارة.. وقالت له إنها سمعت من شقيقها عن جديته فى العمل وخبرته، فقررت أن تستعين بمشورته فى مشروعها وتحدثا بعض الوقت عنه.. وقاطعت حديث العمل أكثر من مرة بسؤاله عن زوجته.. هل تحبها؟ هل تحبك؟ ما شكلها؟ هل أنت مخلص لها؟ وأجابها عن أسئلتها محرجًا.

وانتهت الجلسة على وعد منه بأن يقدم لها دراسة كاملة عن مشروعها فى أقرب وقت.. واستأذن فى الانصراف فقالت له بإغراء غامض:

- سنلتقى فى المساء فى حفل شقيقى لرئيسك.. وسيكون لنا حديث آخر طويل!.

وانصرف مشغول الخاطر بهذه السيدة الغامضة، ماذا تريد منه؟ ولماذا تسأله أسئلة شخصية محرجة فى مقام العمل؟.. إنها سيدة مطلقة ووحيدة ومثيرة للغاية ولابد أن كثيرين يتمنون زواجها.. وهو رجل متزوج وأب فماذا تريد منه؟ وفى المساء توجه مع رئيسه إلى بيت

الشقيق فوجد مجموعة المستثمرين وزوجاتهم ووجدها بينهم واستقبلته بترحيب خاص كأنه صديق قديم، ونهض الجميع إلى البوفيه يلتقطون فى أطباقهم أنواع الطعام الـمختلفة، ففوجئ بها تسحبه من يده لتضع له فى طبقه ما يختاره من طعام، ثم جذبته إلى مائدة خالية قائلة له إنها تريد الانفراد به للحديث فى العمل وتحدثت إليه فى كل شىء إلا العمل واستدرجته للحديث عن نفسه وأسرته.. وحكت له عن حياتها الشخصية وزواجها مرتين لم توفق فيهما وكثرة الطامعين فى مالها وجمالها.. وضحكت كثيرًا وأضحكته أكثر بحكاياتها عمن يطاردونها للإيقاع بها ومنهم معظم الحاضرين فى هذا الحفل رغم زواجهم وإنجابهم!

وانتهى الحفل وغادره وهى تهمس له بأنها ستتصل به فى اليوم التالى!.

وعاد إلى بيته فى منتصف الليل مـجهدًا، فاتصل بزوجته وطفلته ووجد نفسه يقول لزوجته بغير مناسبة إنه يحبها ويفتقدها بشدة.. ويندم على السماح لها بالسفر دونه!.

وسعدت زوجته كثيرًا بما قال وسألته: هل تريد أن نعود غدًا؟ فرفض ذلك بشدة مؤكدًا أن سيلحق بها فى أقرب وقت.

وطالت زيارة رئيس البنك للمدينة بضعة أيام أخرى.. وتكررت

الاجتماعات والدعوات وتكرر لقاؤه بالسيدة المثيرة.. وطالت أوقات الحديث معها.

وعاد إلى بيته ذات مساء.. فرن التليفون وجاءه صوتها يسأل: ماذا تفعل الآن؟

ولم يدر بماذا يجيبها.. فسألته لماذا لا يأتى إليها الآن لكى تتحدث إليه فى أمر هام؟

وحاول الاعتذار بتأخر الوقت واضطراره للصحو مبكرًا ليلتقى برئيسه فسدت عليه المنافذ بقولها له إن رئيسه سيمضى فترة الصباح حتى الظهيرة فى مزرعة أحد العملاء خارج المدينة، وأنه لن يرافقه كما علمت بذلك من شقيقها.. وألحت عليه بالحضور للعشاء معها برقة وعذوبة وإغراء فتراخت مقاومته قليلاً ووعدها بالذهاب.

وتوجه إلى مسكنها ففوجىء بها تستقبله فى روب مثير معتذرة عن ذلك بأنها تعتبره صديقًا مقربًا ولا داعى للتكلف معه!

واشتد ارتخاء مقاومته للإغراء.. وتناول معها العشاء فأشعلت الجلسة بضحكاتها وحكاياتها الطريفة وازداد انفعالها بالحديث، فانفتح الروب أكثر من مرة بحركة بدت كما لو كانت لا إرادية وظهرت من فتحته معالم جسمها البض الملىء صارخة النداء! فوجد عينيه تلتهمان المائدة الشهية رغمًا عنه ولم يستطع المقاومة أكثر من ذلك.. فلبى النداء مستسلمًا.

وفى اليوم التالى كان صوتها أول ما سمعه فى تليفون مكتبه تؤكد عليه أن يفعل المستحيل ليتخلص من ارتباطه برئيسه ويأتى للعشاء معها الليلة.

وتكررت الدعوة.. وتكرر النداء الذى لا يقاوم طوال الأيام التالية وفاجأه صوت زوجته فى المكتب تسأله بلهفة لماذا لم يتصل بها منذ يومين؟ فأحس بخزى شديد كأنما يقف أمامها عاريًا دون أسرار، واعتذر لها كاذبًا بانشغاله الشديد بلقاءات رئيسه واجتماعاته.

وتمنى من أعماقه أن يرحل رئيسه عن المدينة ليلحق بزوجته وطفلته ويتخلص من تمزقه الشديد بين حبه لزوجته وضعفه المهين أمام نداء هذا السيدة الخطيرة.

وتنفس الصعداء أخيرًا حين قرر رئيس البنك الرحيل.. فودَّعه على رصيف القطار وعاد إلى البيت مباشرة فأعد حقيبته وهمَّ بالانصراف فرن جرس التليفون حاملاً صوت السيدة الخطيرة طالبًا منه الحضور. وجاهد نفسه بصعوبة ليبلغها بعزمه على الرحيل الآن. وقاوم بأقصى طاقته إلحاحها عليه بتأجيل السفر إلى الصباح، وتحمل صراخها وانفعالها الصاخب بل وتهديدها له بأنه "يحلم" إذا كان يتصور أنها "قصة عابرة" يستطيع التخلص من أثرها بسهولة ليعود بسلام إلى زوجته وكأن شيئًا لم يكن. لا إنها ليست امرأة رخيصة.. ولابد من

استكمال القصة والتعامل معها باحترام.. وإلا فسوف يندم كثيرًا... و... و... ووضع السماعة وصوت صراخها مازال يعلو منها وقاد سيارته مشغول الخاطر بما سمع ومهمومًا به.. وتعجب من نفسه خلال الطريق كيف ضعف أمامها وكيف استجاب للنداء وهو الذى يحب زوجته ويخلص لها منذ عرفها وارتبط بها.. ولعن نفسه أكثر من مرة.. ولعن رئيسه واللحظة التى دفع فيها زوجته وطفلته للسفر دونه، وتوجس شرًا مما سوف تحمله له الأيام القادمة من متاعب وعواصف قد تهدد أسرته السعيدة، ووقفت السيارة أخيرًا أمام باب الشاليه فهرعت إليه طفلته وزوجته وقبلهما بلهفة، وراح يجيب عن أسئلة زوجته وطفلته عن حياته خلال الأيام التى قضاها بعيدًا عنهما.. وبحركة لا إرادية وجد نفسه يرفع يد زوجته من حين إلى آخر إلى فمه فيقبلها بإحساس طاغ بالذنب فيزداد اتساع ابتسامتها ويتعمق شعورها بالأمان!

وجلس فى شرفة الشاليه ينظر إلى البحر اللانهائى وبجانبه زوجته وطفلته، ولاحظت زوجته شروده وسألته زوجته عما يشغله ففسر لها حالته بإجهاد السفر وعمل الأيام الماضية.. فنهضت إلى داخل الشاليه قائلة له إنها ستصنع له فنجانًا من القهوة ليستعيد حيويته ونشاطه، وتبعتها طفلته إلى الداخل.. فاستسلم لخواطره منفردًا يفكر فيما يمكن أن تفعله تلك السيدة الشرسة حين يقطع علاقته بها بصرامة..

ويصارحها بأن ما حدث بينهما كان خطأ فظيعًا من البداية وضعفًا عابرًا قد يتعرض له أى إنسان فى لحظة لكنه لا يمكن أن يستمر أو ينال من حبه لزوجته وأسرته وتمسكه بهما.

وثقلت عليه مخاوفه وهواجسه.. فقال لنفسه كأنما يطرد عنه الخوف.

وحتى لو حاربتنى فى عملى.. فسوف أصمد لحربها حتى النهاية ولو اقتضى الأمر أن أطلب نقلى إلى فرع آخر ومدينة أخرى.

ثم اشتدت عليه مخاوفه فقال لنفسه مستهينًا بالنذر: وحتى لو وصل الأمر إلى إبلاغها لزوجتى بما حدث.. فسوف أبكى بين يديها ندمًا واعتذارًا وسوف أقبِّل يدها راجيًا أن تصفح عن هذه السقطة المؤلمة وسيصمد حبنا للعاصفة رغم كل شىء، نعم سيصمد وسينتصر وسوف تصفح بعد حين رغم آلامها.. فعلاقتى بها ليست عبثًا إنه حب عميق الجذور وستصمد شجرته العريقة للرياح العابرة.

واطمأن قليلاً إلى ما انتهت إليه أفكاره.. ففوجىء بذراعى زوجته تلتفان حول رقبته من الخلف وذقنها تستند إلى قمة رأسه.. ثم سمعها تقول له بدلال:

ماذا فعلت من غيرى فى الأيام الماضية؟

فزفر زفرة ثقيلة وقال لها بغموض: كانت أياما فظيعة.. أرجو ألا تتكرر فى حياتنا.. مرة أخرى!

استأذن فى الدخول إليه، فأمسك ببطاقته التى حملها له سكرتيره وقرأ الاسم فلم يجد له أى صدى فى نفسه. وسأل سكرتيره عما يريده منه فأجابه بأنه يؤكد أنه صديق قديم. أعاد النظر إلى الاسم المطبوع بحروف سوداء بارزة محاولاً أن يتذكر صاحبه.. فلم تسعفه الذاكرة بأى جديد، فكر للحظات فى أن يعتذر عن عدم مقابلته لإرهاقه بالزيارات والعمل ذلك اليوم، لكن إحساسًا غامضًا دفعه فى اللحظة الأخيرة لأن يستقبله فأشار بيده موافقًا. خرج السكرتير ثم فتح الباب ودخل رجل متوسط العمر، أبيض البشرة، يرتدى نظارة طبية مربعة، تقدم إليه بابتسامة خجول مادا يده، فنهض الآخر ليصافحه بمشاعر حيادية.. فما إن اقترب منه حتى لمعت عيناه فجأة بالتذكر فاقترب محييا بحماس شديد: أوه.. سميح يا لها من مفاجأة!

وسعد الآخر بتذكره وتعانقا بحرارة ثم جلسا وهما يتبادلان التحية فى انفعال ودخل الساعى بمشروب الضيافة فتشاغلا للحظات بتناوله.. وبحديث المجاملة التقليدية ثم أمسك المضيف ببطاقة الضيف، وأعاد قراءة بياناتها بصوت مسموع بطىء كأنما يستعيد معه ذكريات عشرين عامًا مضت،

ويطلب تفسيرًا لما تـحمله من "أخبار" جديدة عليه. دكتور مـحمد سميح القاضى أستاذ مساعد بكلية التربية بجامعة الـمنصورة! ثم رفع عينيه متسائلاً: كم سنة مضت على آخر لقاء؟.

فأجاب الآخر مبتسمًـا: واحد وعشرون عامًا على وجه التحديد جرت فيها أحداث كثيرة لكنك لم تغب عن خاطرى خلالها.. بل كنت سوطًا يلهب ظهرى فى الخيال طوالها ليدفعنى للأمام، وكثيرًا ما فكرت فى زيارتك.. ثم تراجعت فى اللحظة الأخيرة، إلى أن وجدت نفسى فى القاهرة مدعوًا لمؤتمر علمى، فتغلبت على ترددى وجئت لزيارتك!

وغرقا فى الذكريات بعض الوقت. لم يكن يعرفه سوى باسم "سميح" فلم يعرف أبدًا اسمه بالكامل. وكان شابًا مكافحًا يدرس فى الجامعة فى الصباح ويعمل "جرسونًا" فى كازينو الأحلام فى المساء حيث تعرف به وحثه طويلاً على استكمال تعليمه. ولكنه اختفى فجأة.. وانقطع هو عن الذهاب للكازينو فلم يعرف شيئًا عنه حتى فوجىء بدخوله عليه فى مكتبه بعد هذا العمر الطويل. وتساءلت عيناه عن بقية القصة، فروى له أنه اضطر لظروف عائلية للانتقال إلى الإسكندرية والالتحاق بجامعتها.. وواصل عمله الـمسائى فى كازينو مـماثل إلى أن تـخرج متفوقًا بعد عناء شديد وأدى الـخدمة

العسكرية، لكنه لـم يعين معيدا فى كليته كما كان يأمل! فواصل العمل الـمسائى وحصل على الماجستير ثم وجد فرصته أخيرًا فى جامعة الـمنصورة فانتقل إليها وحصل على الدكتوراه وتـزوج وأنجب وألف كتبا جامعية!

واختتم قصته قائلاً: وفى كل مرحلة جديدة من حياتى كنت أتذكرك وأنت تقول لى بحماس: لا تكتف بحياة جرسون فى كازينو.. لابد أن تصنع لنفسك نجاحًا يفتح أمامك الأبواب، فأستعيد نشاطى!

وتبادلا البطاقات وأرقام التليفون.. ودعاه بإلحاح ليتناول العشاء معه فى بيته فاعتذر بإصرار لأنه مرتبط بموعد فى فندقه القريب وسيعود لمدينته فى الصباح، وفارقه مودعًا بحرارة على وعد بتكرار اللقاء والاتصال، وعاد الآخر إلى مكتبه منفعلاً بالذكريات التى أثارها ظهور جرسون كازينو الأحلام القديم فطلب سيارته، وحمل حقيبته وغادر المكتب.. فى ركن السيارة الخلفى جلس وأشار للسائق بالعودة إلى البيت، ثم أشعل سيجارة وراح يسحب أنفاسها بعمق ويرقب الطريق بذهن غائب. واحد وعشرون عامًا. القاهرة عام 1968. ذروة الشباب وعنفوان القوة. الحب الآسر الغلاب تجنب سميح السؤال عنه استشعارًا للحرج، لكن الصمت أبلغ أحيانًا من الكلام. المتعة حتى الجنون.. الحب حتى الموت.. لكن المشاعر صادقة والعذاب

أيضًا صادق. وأستاذ التربية هذا كان شابًا فى العشرين من عمره على الأكثر، أما هو فكان مهندسًا فى السادسة والعشرين من عمره موعودًا بالنجاح والتقدم.. وأما هى فكانت الجنون الممتع.. والحب القاهر الذى لا يخضع لمقاييس ولا يعد إلا بالسعادة الطاغية أو العذاب الأليم.. حين التحق بالشركة كانت مهندسة فى الثلاثين من عمرها تتفجر أنوثة وحيوية وتوهـجًا دائمًـا كالبراكين التى لا تعرف الهدوء. وعرف من زملائه أنها مطلقة لم تنجب ولن تنجب لعقمها وأنها مطمع الكبار والمديرين. وتزوجت وهى طالبة من أستاذها بالكلية وقع فى هواها فألقى سلاحه أمامها، لكن عشرتها معه لم تطل سوى ثلاثة أعوام وانتهت بالطلاق بسبب جنون الغيرة.. فهى فتنة للناظرين وبقدر إخلاصها لمن تحب بقدر ما تتفنن فى إثارة غيرته ليظل متأججًا بالنار على الدوام.. عينت فى الشركة قبله بخمسة أعوام، فالتقطتها عين رئيس الشركة الخبيرة وسلط عليها بطاريات إغراءاته. فلم تستجب ولم تعبأ بتهديداته. تمكن حبها من قلبه فسلم بالفشل.. وركع أمامها فى مكتبه يبثها حبه بدموع حقيقية؛ فإذا بمن صمدت لكل الضغوط ببسالة تنهار أمام الدموع وترفعه عن الأرض بيديها ثم تذوب فى حضنه. من النقيض إلى النقيض تنتقل دائمًـا.. لكنها صادقة فى الرفض وصادقة فى القبول. بانطلاق القطة البرية عاشت تنشب أظافرها أحيانًا فتدمى.. وتتمسح بشعرها الناعم أحيانًا فتمنح ملمس

النعومة والثراء، أعجبها أن ينهار أمامها الرجل الخطير ففتحت له قلبها المغلق وأحبته.. نعم أحبته.. وأعلنت ذلك بصراحة للجميع. وحاول الآخر أن يتخفى بعلاقته بها لكنها لم تأبه لشيء.. كانت تتصل به من مكتبها أمام زملائها وتبثه حديث الغرام، وتغادر العمل لتلتقى به فلا تتردد إذا سألها زميل عن وجهتها أن تجيبه أنها ذاهبة الآن للقاء حبيبها "فلان".

شاعت القصة فى الشركة والوزارة التى تتبعها وساء موقف الرئيس. فاستدعاه وكيل الوزارة وطالبه بوضع حد لهذه الفضائح. تسرب الخبر بسرعة البرق إلى زوجته، فتحول هدوء حياته إلى جحيم ولم يستطع الامتناع عنها. وبلغت الأزمة قمتها حين بدأت تضغط عليه ليتزوجها.. أو تقطع علاقتها به.. فتجرع العذاب كؤوسًا.. ثم عجز عن الاحتمال فاتفق معها على الزواج عرفيًا بشرط أن تكتم السر إلى أن يرتب أوضاع حياته وتزوجها وأعد لها مسكنًا فى مصر الجديدة، رشفًا فيه معًا كؤوس الحب. لكن الحياة لم تصف لهما تمامًا. فطبيعتها المتقلبة لا تعرف الاستقرار، وميلها الغريزى لإثارة غيرة من تحب جعلا من الحياة معها مزيجًا شيطانيًا من المتعة والعذاب ومتعتها دائمًا لاذعة.. وعذابها ككيِّ النار!.. واصلت ضغطها عليه ليعلن زواجه منها ويتزوجها رسميًا ويطلق زوجته فرفض وتجرع كأس الهجر مترعة.. ثم ضعف وقرر أن يستجيب لمطالبها.. وسعدت باستجابته

فذابت فيه حبًا.. وفى اليوم المحدد اجتمعت أسرتـها فى مسكنها وجاء الـمأذون. لكن الزوج لـم يظهر له أثر، لاحقته بالاتصالات التليفونية فلم تنجح فى الاهتداء إليه. وتحول الفرح الـموعود إلى مأتم حزين.. وفى الصباح توجهت إلى الشركة وشرر النار يتطاير من عينيها واقتحمت باب مكتبه فلاحقها السكرتير هامسًا لها أن "البك" لم يأت ولن يأتى لأنه نقل للإشراف على مشروعات الشركة بدولة عربية، وسافر بالأمس على أن تلحق به أسرته حين يستقر به الحال هناك. أما الشركة فيديرها الآن نائب رئيسها إلى حين تعيين رئيس آخر.

تهاوت على الأرض بلا مقاومة ولا كبرياء، وشاعت القصة المخجلة فى كل أنحاء المكان. وعرف كثيرون أن زوجة الرجل تدخلت فى اللحظة الأخيرة ولجأت إلى زوجة الوزير زميلة دراستها القديمة، فاستدعاه منذ يومين ووبَّخه بعنف وأمره بالسفر فورًا إلى الدولة العربية.

وانهارت القطة البرية الـجميلة وغابت عن العمل ثم عادت بشخصية حزينة جديدة تكره الرجال، وتعلن للجميع بأنـها لن تسلم قلبها لأحد مرة أخرى!

فى هذه الظروف بدأ هو عمله فى الشركة شابًا حديث التخرج قليل الخبرة، فرآها ولاحظ تأثير فتنتها الطاغية على الآخرين.. ولاحظ

أيضًا أن الجميع لا يعفونها من الاتهام بالجرأة على التقاليد والأعراف فى غيابها وإن كانوا يعملون لها ألف حساب فى حضورها.. وأدرك بسهولة أن أكثر من يهاجمونها حماسًا هم أكثرهم رغبة فى الفوز بها رغم ما يحيط بها من شبهات، لكنها تصمد للجميع فيتهمها البعض بأنها قد نقلت نشاطها العاطفى إلى ميدان بعيد عن دائرة العمل، ويختلقون حولها قصصًا لا نهاية لها.

لم يفكر لحظة فى الاقتراب منها إحساسًا منه بعجزه عن مناقشة "الكبار" وإحساسًا بتفاهة شأنه وصغر سنه بالنسبة لها. فأين هو من رئيس الشركة الجديد الذى لم يتردد لحظة واحدة فى مغازلتها ثم فى اضطهادها حين تأبت عليه؟ وأين هو من رئيس القسم المفتون بثرائه ووسامته وسياراته.. والذى لا يخفى إعجابه بها وضعفه معها.. بل وأين هو منها هى نفسها وهى مهندسة فى الثلاثين صاحبة خبرة ثمينة فى دنيا الرجال، تركب سيارة فاخرة وتقيم وحيدة بعيدة عن أسرتها فى سكن فاخر ولها صداقات اجتماعية لامعة فى النادى وفى كل مكان.

عرف قدر نفسه جيدًا فانكمش يرقبها من بعيد وتجنب حتى تحيتها إذا لقيها عرضا فى نادى الشركة الذى يجمع الزملاء وأسرهم، وفى النادى التقى عدة مرات بزميلات وزملاء دفعته الذين دامت

صداقتهم بعد التخرج، واستجاب لتودد إحداهن له وبدأ يفكر فى توثيق صلته معها أملا فى الارتباط بها فى المستقبل. وتناول الغداء ذات يوم فى نادى الشركة مع خمسة من زملاء الكلية وزميلاتها ثم خرجوا يبحثون عن سيارات أجرة لتنقل كلا منهم إلى وجهته وطال وقوفهم أمام النادى وهم يتضاحكون، فإذا بسيارة زميلته القطة البرية تقف أمامهم وتشير له للاقتراب. فيقترب وتدعوه وزملاءه لتوصيلهم إلى حيث يريدون. مفاجأة أثارت فى نفسه الفخر أمام زملائه فشكرها بحرارة ودعاهم للركوب، وتولت هى بحزم ترتيب الجلوس "فأمرت" البنات بالركوب إلى جوارها والشباب بالركوب فى المقعد الخلفى، وقادت السيارة وهى تداعب الجميع بخفة ظل عجيبة فتفجرت الضحكات الصاخبة طوال الرحلة، وحين نزل آخر الركاب قالت لزميلها المهندس الشاب:

ـ أنت يا "ولد" ظريف.. وأصدقاؤك ظرفاء، إذا جئتم للنادى مرة أخرى فادعونى للغداء معكم!

وغادر السيارة ثملا بالسعادة والانتشاء!

وتكرر اللقاء الجماعى بعد ذلك عدة مرات.. وانطلقت الفاتنة على سجيتها، فأسرت قلوب الفتيات والشباب على حد سواء. وأعلنت لهم أنها أحبت الشلة.. لأنها أتاحت لها أن تعيش حياة الزمالة الجامعية

التى حرمت منها، لأنها تزوجت وهى طالبة من أستاذها وكان شديد الغيرة عليها من زملائها. فحرمها من الاختلاط بهم.

.. ووجدت نفسها وهى دون العشرين بلا صديقات سوى زوجات زملائه وكلهن فوق الأربعين! واقترح أحد أعضاء الشلة ذات يوم الذهاب فى رحلة إلى الحديقة اليابانية بحلوان يوم العطلة الأسبوعية، فتحمست للفكرة بجنون كأنها طفلة ستخرج للحدائق للمرة الأولى فى حياتها. وجاءت فى اليوم الموعود ترتدى قميصًا واسعًا يخنقه حزام فوق بنطلون يكاد يتفجر من وطأة أنوثتها ومعها سلة السندويتشات وخيمة صغيرة فى حقيبة السيارة. وقادت الرحلة بمرح حازم إلى الحديقة وأشرفت على إقامة الخيمة فيها وعاش الجميع يومًا ممتعًا حتى الغروب. وفى طريق العودة وبعد انصراف باقى الزملاء قالت له إن بعض "الكبار" بالشركة ينتقدون خروجها مع هؤلاء "العيال" الذين تخصهم بصداقتها دونهم، فأفحمتهم بأن هؤلاء "العيال" أصدقاؤها وتجد فى صحبتهم من صدق المشاعر ما لا تجده فى صحبة الكبار وجلساتهم المملة المزيفة بالأماكن الراقية!

واختتمت "تصريحها" بأنها تعرف جيدًا أنها "مجنونة" لا تستجيب إلا لنداء طبيعتها لكنها لا تملك لجنونها تغييرًا!

واستقر عشقها فى أعماقها صامتًا كالمارد النائم، ورحلة بعد رحلة ولقاء بعد لقاء، نطقت عيناه بالحب الذى لا يجرؤ على التعبير عن نفسه حتى فوجىء بها بعد أن غادرهم الأصدقاء ذات يوم تقول له وهو يركب إلى جانبها بالسيارة بغير اهتمام:

ـ أنت "يا ولد" تحبنى.. أليس كذلك؟

فتضرج وجهه بالاحمرار.. ولم ينطق بحرف.

فعادت تقول: ربما ترى نفسك غير جدير بى.. أو تقول لنفسك أين أنا من فلان وفلان الذين يطاردونها.. أليس كذلك؟

فأحنى رأسه عاجزًا عن الكلام، فعاد صوتها يقول:

ـ ارفع رأسك.. لماذا تشعر بأنك لا تستحقنى.. ألا تعرف أننى أيضًا "مجنونة" وقد أجد فيك ما لا أجده فى هؤلاء الكبار؟

ثم مدت يدها وأمسكت بيده فى حنان مفاجىء فانهار آخر حصونه واستجمع قوى الدنيا بأسرها ورفع يدها إلى فمه وقبلها.. وسقطت دمعة ساخنة على ظهر كفها اللدن.

وبدأت قصته معها.. وبجرأتها المعهودة لم تخف شيئًا.. وتصدت للانتقادات والهمسات والكلمات الطائشة، فألزمت كل معتد أثيم حدوده. وأصبحت تنهى عملها فى مكتبها القريب من إدارته ثم تأتى

إليه فى مكتبه لتصطحبه علنا أمام زملاء العمل، وتنزل معه إلى سيارتها فيمضيان اليوم معًا من الثالثة بعد الظهر إلى أن يوصلها إلى بيتها عند منتصف الليل. وفى هذه الأثناء عرف سميح زائر هذا المساء الذى أعاد ظهوره المفاجىء إلى القلب الموجوع ذكرياته، فقد قادتها أقدامها ذات مساء إلى كازينو الأحلام ليمضيا فيه فترة المساء واختارا مائدة جانبية هادئة ليستمعا إلى الموسيقى الناعمة التى تشيع فى المكان ويستريحا من عناء التجوال، وجاء الجرسون الشاب فاستراح إليه للوهلة الأولى وسأله عن اسمه.. وداعبته هى بأن مظهره يبدو كأنه طالب جامعة فأجابها بأنه كذلك بالفعل. لكنه يعمل فى المساء ليواجه ظروفًا صعبة. وتكررت زيارتها لكازينو الأحلام وتصادق هو معه سريعًا وزاره سميح فى مكتبه وفى بيته واستعار منه بعض الكتب والروايات، وعامله باحترام فأحبه سميح ووجد فى صحبته عزاء عن ظروفه الصعبة، وحثه دائمًا على إنهاء دراسته وعدم الاستسلام لظروفه، فاستمد من تشجيعه عونًا له على إكمال المشوار.. وفى فترة الامتحان كان يستضيفه فى بيته الذى يعيش فيه وحيدًا مع أمه وأبيه ليوفر له الجو الملائم فنطقت عينا سميح بالعرفان. ومع توثق الصداقة أصبح كازينو الأحلام هو واحتهما التى يمضيان فيها فترة المساء معظم أيام الأسبوع. وأصبح سميح يحتجز لهما مائدتهما المفضلة ويضع عليها بطاقة تحمل اسمه كالنجوم والأعيان!.

وكما شهد صديقه الجديد ينعم بالحب والمتعة مع حبيبته اقترب منه وهو يعانى من تقلبات القطة الجامحة أو تفننها فى إثارة غيرته والشك فيها، ليظل الإناء يتراقص فوق الموقد دائمًا فى درجة الغليان.. ورآه فى ضعفه يبكى فى فترات هجرها له حين بدأت تضغط عليه ليتزوجها.. وتثور عليه ثورات مدمرة إذا استشعرت لمحة تردد فى صوته أو ملامحه. أتتردد فى القبول وأنا التى رفضت الكبار اللامعين من أجلك؟. من تظن نفسك؟ ثم تغيب عن حياته.. فتظلم الدنيا.. ويتوحش الألم وتتوالى الليالى كئيبة مؤرقة. تمضى السحابة إلى غايتها فتعود إليه كأن شيئًا لم يكن معترفة بأنها لم تطق الهجر أكثر من ذلك فتغرد العصافير عازفة ألحان السعادة والمتعة.

ثم وضعته فى النهاية أمام الاختيار القاسى.. إما الزواج الآن وإما الانفصال، فغرق فى التعاسة حتى القاع.. كان يحبها ويرغبها، لكنه يشفق على نفسه "من إناء" الحياة معها الذى يغلى باستمرار إما بالحب والمتعة أو بالشك والغيرة والخوف من مواجهة المجتمع بهذا الزواج المحفوف بالانتقادات والاتهامات.

وأخيرًا اعترف لنفسه بأن عذاب هجرها أشق عليه من عذاب الشك والغيرة.. فألقى سلاحه أمامها واتصل بها يطلب موعدًا لكى يزور أسرتها مع أبيه وأمه زيارة تعارف مبدئية. وسعدت بالخبر وعادت إليه فروت ظمأه القاتل وحددت موعدًا بعد يومين.

كان الوقت شتاء والجو شديد البرودة، وأقنع أباه بصعوبة بالغة عن كل الحقائق عدا أنها تزوجت أستاذها بالجامعة وطلقت منه بعد سنوات. أما العقم فلم يشر إليه وأما الزواج العرفى والسمعة السيئة فقد احتفظ بهما لنفسه ووعده شقيقه مشفقًا ألا يشير إليهما.. ووافق الأب بغير اقتناع كامل. لكنه صحا فى اليوم الموعود محمومًا ودرجة حرارته فوق الأربعين وزاره الطبيب فأمره بالراحة لمدة أسبوع، فطلب الأب من ابنه أن يفى بوعده للأسرة التى تنتظرهم وأن يصطحب معه شقيقه الأكبر وأمه لينوبا عنه. واتصل هو بفتاته ليبلغها الخبر فلم يكد يشير فى بداية الحديث إلى مرض أبيه حتى انفجرت فيه انفجارًا مدمرًا لم تسمع معه باقى الرسالة.. وأعلنت له انتهاء كل شىء وصفعه صرير التليفون فى أذنه كحكم قاسٍ عليه بالعذاب الأبدى. كعادتها فى سوء الظن بالآخرين، تصورت أنه يراوغ فلم تسمع باقى القصة ولم تتح له فرصة الدفاع عن نفسه. وعاد يائسًا لأسرته فأعلن انتهاء كل شىء ولم تتم الزيارة.. واختفت هى عن كل مظانها حتى بدأ العقل الشامت يخاطب القلب الكسير ويسأله.. هل يمكن أن تستقر سفينة الحياة مع كرة اللهب المشتعلة دائمًا هذه؟

وعانى الألم مغالبًا نفسه لكيلا يستجديها العودة إليه مرة أخرى وقاطع كازينو الأحلام.. فلم يعد يرى سميحًا أو يتصل به. واتصل به سميح بعد شهرين يسأل عنه، فأجابه أنه مشغول عن الذهاب

للكازينو بظروف طارئة. ولم يتحمس لدعوته للقاء.. لأنه ارتبط فى ذهنه بمن يريد أن يتجنب كل ما يذكره بها من أماكن وأشخاص. وبعد شهور طويلة كليل السجين عادت للاتصال به مرة أخرى، لكن شيئًا ثمينًا فى روحها وفى روحه كان قد غاب إلى الأبد.. ولم تبق إلا المرارة على الجانبين. وكما عادت فجأة اختفت فجأة أيضًا مسلمة بأن الإناء المشروخ تصعب إعادته إلى صورته الأولى. وتساقطت أوراق الأيام سريعة فسمع بعد عام بزواجها من أحد مديرى الشركة. وكان هو قد انتقل إلى شركة أخرى فلم يسمع بالخبر إلا بعد إتمام الزواج بشهور. وبعد ثلاثة أعوام من انتهاء قصته معها تزوج هو زواجًا تقليديًا رضى عنه الجميع وعاش حياة هادئة لا تعرف لذع الحب الممتع.. ولا لسع الألم المحرق، فاستقرت حياته وواصل تقدمه فى عمله باطراد.. أما واهبة الحب والعذاب فلم تستقر سفينة زواجها الثالث للأسف سوى بضعة أعوام ثم تحطمت على صخرة الشك والجنون.

وأنجب أبناءه.. وتسللت الشعيرات البيضاء إلى فوديه.. ونسى كازينو الأحلام فلم يقترب منه مرة أخرى.. ولم يعد يتذكرها إلا فى المناسبات، وأسف لها مرة أخرى حين علم بزواجها الرابع وهجرتها ثم فشل هذا الزواج أيضًا وعودتها الخائبة يائسة من أى أمل فى الاستقرار.. ولمحها ذات مرة خلال انتخابات النقابة التى تجمعهما

عضويتها فوجدها مثالاً للجمال الحزين.. والفتنة التى لم تعد على صاحبتها إلا بالعناء، ورثى لها على البعد أكثر حين مال عليه رئيس إحدى الشركات خلال جلوسهما بالنقابة وقال له هامسًا وهو يشير إليها خفية: يقولون إنها تتردد على طبيب نفسى بانتظام، ليعالجها من إدمان الشراب بعد فشل آخر زيجاتها ويأسها من الاستقرار! ثم توالى سقوط أوراق الأيام فلم يعد يراها أو يسمع بها أو يتذكرها حتى جاءه زائر هذا المساء ونكأ الجراح القديمة.

واقتربت السيارة من بيته.. فأطفأ سيجارته الثالثة منذ غادر مكتبه.. وبدأ يتهيأ لمغادرتها.. فإذا بصوت داخلى فى أعماقه يسأله:

أكان الأفضل أن تستمتع بلهب الحب اللاذع بضع سنوات من عمرك وتتكبد كل ما تتكبده من آلام ثمنًا له.. أم أن الأفضل هو ما اخترت لنفسك من حياة هادئة لم تعرف لهب المتعة ولا لسع الألم؟

وفكر مليًا فى السؤال وهو يدير مفتاحه فى باب مسكنه بغير أن يتوصل إلى جواب ثم دخل إلى غرفة نومه وحيًا زوجته وأولاده وهو يفكر فيه.. وخلع ملابسه وارتدى الروب الشتوى الثقيل ثم جلس أمام التليفزيون ينتظر صينية العشاء، وجاءت بها زوجته الرصينة دائمًا منذ عرفها كأنها شيخ وقور، فمدَّ يده بتثاقل إلى قطعة التوست الأسمر المحمص المخلوط بقشور القمح، وقطعة الجبن القريش

المنزوعة الدسم الخالية من الملح التى لا يتناول غيرها فى العشاء والإفطار بأمر الطبيب.. بالإضافة إلى غدائه من الخضر المسلوقة كل يوم، وبدأ يزدرد طعامه بصعوبة وبلا شهية.

وغلبته أفكاره وخواطره فقال لزوجته فجأة:

ـ لماذا تحب النفس الطعام الحريف بتوابله اللاذعة المثيرة للشهية.. رغم أنه لا يعدنا إلا بالألم والمرض.. ولماذا تعاف النفس الطعام الصحى.. رغم فوائده المؤكدة؟

ودهشت زوجته للسؤال غير المتوقع فسألته متعجبة:

ـ نعم؟

فتنبه لنفسه على الفور.. وأسف لانفلات خواطره منه على غير إرادته وقال لها معتذرًا:

ـ أوه عفوًا.. سرحت قليلاً فى قصة زائر زارنى فجأة هذا المساء فى مكتبى بعد غيبة عشرين عامًا!

وعاد يأكل طعامه صامتًا.. بلا رفض.. ولا حماس!

استسلمت الصغيرة للنوم فى غرفتها بعد عناء شديد.. فأحكم الغطاء حولها.. ونظر إليها طويلاً ليتأكد من أنها لن تصحو مرة أخرى.. ثم غادر الغرفة إلى المطبخ فصنع لنفسه فنجانًا من القهوة.. وحمله إلى مقعده المريح أمام التليفزيون وتمدد أمامه يرقب شاشته فى استرخاء وهو يحتسى القهوة ويدخن ويفكر.

لكم أرهقتنى الصغيرة هذا المساء قبل أن تنام. بكت كثيرًا وسألتنى من جديد "عنها".. واتهمتنى بحرمانها "منها"، وأقسمت أنها لن تذهب إلى المدرسة غدًا إذا لم أعدها باصطحابها إليها فاضطررت لأن أعدها بذلك. أقسى من الألم أن تتظاهر بأنه ليس بك أى جرح وأنت الجريح حتى الموت.. وهذا ما أفعله كل يوم مع طفلتى الصغيرة ومع زملاء العمل والأصدقاء وأمى وإخوتى منذ شهور طويلة.

شقيقتى التى تكبرنى بعامين هى وحدها التى لم تنخدع لحظة بتظاهرى بالاستهانة بما حدث، ونظرت إلىّ طويلاً وأنا أجلس فى الشرفة وقت الأصيل أشرب القهوة وأرقب الطريق.. ثم انفجرت فجأة فى البكاء فلم أستطع الاستمرار فى الخديعة وجاوبتها بسيل صامت من الدموع.

تزورنى كثيرًا منذ جرى ما جرى.. وتغسل ملابس الطفلة وتطهو طعام الأسبوع وتضعه فى الثلاجة وتلاعب الطفلة كثيرًا.. وتصطحبها إلى المحلات لشراء احتياجاتها، وتدعونى إلى بيتها كل بضعة أيام لتناول طعام العشاء وقضاء الأمسية مع زوجها وأطفالها.. زوجها صديق أكثر منه قريب.. تآلفت روحى معه منذ انضم إلى أسرتنا ووجدت فيه قلبًا طيبًا وعقلاً راجحًا. كلاهما عطوف يبادل الآخر عطفًا وحبًا فنضج بيتهما بعطر الحب والرحمة. هكذا كنت "معها" فى أيامنا السابقة.. لكن أريج الحب لم يثبت للأيام.

كانت شقيقة لأحد زملاء العمل.. رأيتها معه أكثر من مرة واجتذبتنى إليها بجمالها.. وخفة ظلها.. وقوة شخصيتها.. جسست نبضها فوجدت الطريق مفتوحًا أمامى. فاتحت شقيقها فى خطبتها فرحب بى على الفور، تعاونّا فى إعداد عش الزوجية وقدمت لها كل ما أملكه.. وأحببتها وشغفت بها قبل أن نبدأ حياتنا الزوجية.. وبعد الزواج سلمت لها راية قلبى وازددت افتتانًا بها، وجاءت الصغيرة بعد عام من الزواج فوثقت الروابط وجمَّلت الحياة أكثر. لكنها رغم سعادتها معى كانت دائمًا ملولة وضجرة.. وكثيرة الشكوى.. من كل شىء تشكو من عملها وعدم إنصافها فيه.. ومن متاعب الطفلة الصغيرة ومن ارتفاع الأسعار.. وقلة الدخل مع أنى أضع فى يدها مرتبى الكبير كاملاً كل شهر ولا أحاسبها فيما أنفقته.. وتشكو من

غيابى أسبوعين كل شهر فى موقع العمل البعيد بالشركة التى أعمل بها مع أنى أتقاضى عن هذين الأسبوعين أجرًا مضاعفًا يخفف من عناء حياتنا.

وفى كل الظروف كنت أسمع باهتمام وأواسيها وأخفف عنها.. فتستريح ثم لا تلبث أن تتألق الابتسامة الجميلة فى وجهها..

ولجمالـها وخفة ظلها.. وشهامتها نالت مكانة غالية لدى أمى وإخوتى وزملائى، فهى الـحريصة دائمًـا على صحة أمى ومـجاملة أشقائى فى مناسباتـهم والـمتطوعة بشهامة لـمساعدة كل من يـحتاج إلى مساعدتـها منهم، وكلما أثنى عليها أحد من أهلى ثملت طربًا بالثناء وازددت بها فخرًا وغفرت لها نغمتها الشاكية.

أما فى بيوت أصدقائى فقد تألقت بجمالها وحضورها وخفة ظلها فى المناسبات الاجتماعية وفى مصيف الشركة كسبت ود زملاء العمل الذين تجمعنا بهم الإجازة وشقق المصيف.

وفى إحدى هذه الإجازات تعرفنا إلى أسرة زميل جديد انتقل إلى فرع الشركة مؤخرًا وتقاربت الميول بيننا سريعًا.

وكثرت لقاءاتنا خلال إجازة الصيف.. ثم استمرت بعد العودة من المصيف، فتعددت دعواته لنا للعشاء ودعواتنـا له ولزوجته وابنتيه، وتوثقت العلاقة بيننا حتى أصبحنا لا نخرج فى نزهة إلا

معهم.. ولا نقضى يوم الإجازة الأسبوعية إلا معًا فى بيتنا أو بيتهم أو فى النادى. ورغم سعادتها البادية فلقد ازدادت النغمة الشاكية فى حديثها وأضافت إلى أسباب شكواها المتعددة.. سببًا جديدًا لم يكن قائمًا من قبل هو أنا فقد بدأت تشكو منى.. وتحاسبنى على كل كلمة أو إشارة وتستشعر فى تصرفاتى العادية جرحًا لمشاعرها أو عدم تقديرى لها.. أو تجاهلاً للاهتمام بها.. وعبثًا حاولت أن أنفى عن نفسى الاتهام وأبرهن لها على العكس.. إلى أن فوجئت بها بعد عودتنا من النادى ونوم طفلتنا الصغيرة ذات يوم تقول لى فى جدية:

ـ أريد أن أحدثك فى أمر هام.

فتطلعت إليها باسمًا ومنتظرًا فإذا بها تطلب منى الطلاق!

الطلاق؟ بعد يوم سعيد قضيناه فى النادى مع أسرة صديقة ولم تكف طواله عن الضحك والابتهاج؟ لماذا؟ وماذا حدث؟.. جد أم هزل هذا؟ أسئلة كثيرة متلاحقة طرحتها عليها وأنا مبهور الأنفاس.. فلم أحظ منها بجواب شاف، وكان كل ما قالته لى إنها تريد الطلاق ولن تتنازل عنه، وسوف تغادر البيت غدًا إلى بيت أسرتها حتى أستجيب لطلبها.

وماذا عن ابنتك؟ لا جواب!.. وماذا عنى وقد قدمت لك كل ما أستطيع لأرضيك وأحافظ على هذه الأسرة الصغيرة من أجلك ومن أجل طفلتنا؟.. لا جواب.

هل أسأت إليك.. هل آذيتك مرة.. هل ضربتك مرة.. هل أهنتك؟ هل بخلت عليك؟ لا جواب.. أو أجوبة كاللاجواب بكلام متهافت عن بعض الخلافات العابرة البسيطة القديمة التى لا تخلو منها حياة زوجية ولم تستغرق ساعات وانقضت منذ زمن طويل.

إذن ما العمل؟ تجيبنى: الطلاق.. فكرى.. راجعى نفسك فكرى فى ابنتك.. فى مستقبلها.. فى مصلحتها!

ولكن لا تفكير ولا مراجعة.. طوال الأسابيع التالية لم تنجح أية محاولة معها لإقناعها بالعدول عن طلبها حتى صرخت فيها أمها فى حضورى: يا ظالمة.. واصطدم بها شقيقها صدامًا صاخبًا.. وكادا يتشابكان بالضرب فى وجودى.

وأخيرًا سلمت بما لا مفر منه، لكنى أردت فى اللحظة الأخيرة أن أضع أصعب العراقيل فى طريقها لعلها تفيق إلى نفسها، فعلقت موافقتى على طلاقها على تنازلها عن حضانة الطفلة لى. وتلقى القلب الجريح طعنة أشد إيلامًا بموافقتها على هذا الشرط القاسى! ويوم أبلغتنى شقيقتى بموافقتها فى التليفون وهى تصب لعناتها على "الفاجرة" التى تضحى بطفلتها للحصول على الطلاق وضعت السماعة مذهولاً، وظللت أتجول فى مسكنى الخالى تنهبنى الأفكار والخواطر.. وإحساس مرير برخصى وهوانى على زوجتى يقتلنى.

وفجأة وجدتنى أقف أمام المرآة وأتفرس فى وجهى وهيئتى لأكتشف سر بشاعتى التى تدفع أمًا للتخلى عن طفلتها للتخلص من عشرتى، وطال وقوفى أمام المرآة.. حتى خفت على نفسى من الجنون، فتناولت حبة مهدئة ودخلت فى فراشى محاولاً النوم، فمضى وقت طويل وأنا مستلق فى الفراش أرقب نجفة غرفة النوم وأتساءل متحيرًا: لماذا يرانى الآخرون طيبًا وحلو المعاشرة ومهذبًا.. ولا ترانى زوجتى كذلك؟ لابد أنهم جميعًا مخطئون وهى وحدها الصادقة، فالزوجة هى من تعرف صدقًا حقيقة من تعاشره، أما الأهل والأصدقاء فهم لا يعرفون عنه إلا ما تبدو عليه صورته الخارجية.. وفى غمار أفكارى اكتشفت فجأة أن معظم لمبات النجفة المصممة على شكل ملائكة صغيرة تحمل مشاعل الإضاءة مطفأة وتالفة، وتذكرت أنها كذلك منذ زمن طويل ولم أفكر فى تغييرها. قلت لنفسى انطفأت وتلفت ولم نتنبه لضرورة استبدالها بلمبات جديدة، فمتى انطفأت مشاعل الحب فى حياتى وخيم عليها ظلام النفور دون أن أدرى؟.

فى قلب الأحزان يتشاغل الذهن أحيانًا بالأشياء الصغيرة. فهل هذه علامة صحية.. أم نذير جنون؟.

أطفأت نور الغرفة ووضعت الوسادة فوق رأسى محاولاً النوم،

فغمر ضوء الصباح الغرفة ولم يغمض لى جفن، وفى مساء ذلك اليوم توجهت مع شقيقتى إلى مكتب المحامى.. وجاءت هى وشقيقها وطفلتى بعد اختفاء أسابيع وأعدت صيغة التنازل عن حضانة الطفلة.. ووقعتها أمامى بثبات وهى تتجنب النظر إلىّ وإلى شقيقتى.. ثم خرجنا إلى مكتب المأذون فطلقتها فيه.. وقبَّلت الغادرة الطفلة وهى تقول لها إنها ستسافر لبضعة أيام وستتركها مع بابا حتى تعود، ثم غادرت المكتب فى صحبة شقيقها دون وداع.

ومنذ ذلك اليوم تغيرت أشياء كثيرة فى حياتى، فاعتذرت عن عدم السفر إلى مواقع العمل البعيد متنازلاً عن فوائده المادية.. وتفرغت لرعاية طفلتى والاهتمام بشئونها ومحاولة ابتكار إجابة جديدة كل يوم عن سؤالها الدائم عن موعد عودة أمها.

وفى يوم الجمعة من كل أسبوع يأتى شقيق الغادرة خجلاً ليستأذننى فى اصطحاب الطفلة إلى أمها، وتبكينى صامتًا فرحة الطفلة بالذهاب معه.. وتبكينى أكثر عودتها من الزيارة دامعة وهى تسألنى عن سبب عدم عودة أمى للإقامة معنا.

أيامى تتوالى كئيبة.. ومواساة الأهل لى تخفف عنى بعض آلامى وتثير رثائى لنفسى فى نفس الوقت، قالت أمى راثية سعادتى المهدرة، كنت دائمًا أطيب أبنائى وأكثرهم حنانًا بإخوته،

ولـم تـحتج يومًا لـمن ينبهك إلى واجبك.. فكيف تكون أقلهم حظًا فى الحياة؟

فأسمع كلماتـها الطيبة شاكرًا.. ومتظاهرًا بالـمرح وبالاستهانة ومؤكدًا لـها أنى سعيد بحياتى هكذا مع ابنتى.. لكـن هيهات أن يغفل قلب الأم عن التعاسة الكامنة فى الأعماق. وكنت أظن أنى قد تـجرعت كأس الألـم كاملة. فإذا بى أذهب إلى عملى ذات صباح فأجد الـجميع يتفحصوننى باهتمام ورثاء خفى كأنما يتوقعون منى شيئًا لا أعرفه.. وشعرت فى نظراتـهم بشىء مريب فسألت أقربـهم إلى قلبى عما يدور حـولى فنظر إلىَّ صامتًا ثم فاجـأنى بدعوتى للخروج معـه من العمل فى مشوار قصير.. وفى الشارع قال لى بنبرة عاطفة:

ـ لابد أن تعرف ما يعرفه غيرك.. لقد تزوجت زوجتك السابقة من زميلنا فلان زواجًا عرفيًا وعرف الجميع فى العمل بذلك اليوم.

فشعرت بأن ساقى تعجزان عن حـملى.. وتوقفت فى الشارع مذهولاً.. فلان.. صديقى الـمقرب الذى تعرفت على أسرته فى الـمصيف واحترمت زوجته وأحببت ابنتيه؟ ألـهذا اختفى من حياتى طوال الأسابيع الماضية وكنت أعتب عليه تـخليه عنى فى مـحنتى.. فإذا به هو صانعها والـمسئول عنها!

هذه هى القصة إذن.. نار تسرى تحت الرماد وأنا مطمئن إلى يومى وغدى مع زوجتى وطفلتى الصغيرة.. الأمر إذن ليس مصادفة وإنما تدبير محكم أنا ضحيته وطفلتى أيضًا.. لكن كيف تنازلت المعتزة بنفسها وجمالها عن كبريائها، فرضيت بوضع الزوجة الثانية لزوج وأب لابنتين فى سن المراهقة، وكيف تمادت فى الهوان فرضيت بزواج عرفى أشبه بالزواج السرى؟

وعجزت تمامًا عن المشى.. فاستدعى زميلى سيارة أجرة وصحبنى إلى سكنى الخالى ولازمنى طوال اليوم يهون علىَّ الأمر.. ويخفف عنى. وحملته عند انصرافه خطابًا إلى مديرى أطلب فيه إجازة لمدة أسبوعين.

وأمضيت الإجازة فى مسكنى لا أكاد أغادره إلا لفترة قصيرة كل مساء مع طفلتى أشترى خلالها لها ما تحتاج إليه أو أروِّح عنها وعن نفسى بالمشى قليلاً فى الشوارع.

وعدت للعمل بعد الإجازة جريح القلب والكرامة.. وتـجاهل الزملاء أية إشارة إلى زميلى بطل القصة احترامًا لـمشاعرى، وشعرت بارتيـاح كبير حين علمت بأن مديرنا قد نقله إلى فرع آخر مصحوبًا بتقرير سيىء عن أخلاقياته، ورتبت حياتى بعد ذلك على التفرغ لعملى وطفلتى ولـم يعـد هناك ما يشغلنى سوى تدبير احتياجات معيشتنا معًا وترتيب زياراتـها لأسرتى وبيوت أشقائى.

وأسرفت فى احتساء القهوة والتدخين والجلوس شاردًا أمام جهاز التليفزيون كل ليلة.. أرقب شاشته طوال الوقت ولا أعى مما أراه الكثير، وأصبحت مشكلة حياتى الوحيدة هى إخفاء الحقيقة المؤلمة عن طفلتى حتى لا تترسب فى وجدانها الصغير وتنمو داخله مع الأيام.

فرفضت أن تزور طفلتى أمها فى الشقة المفروشة التى استأجرها الصديق الغادر، ورفضت السماح لها برؤيتها إلا فى بيت جدتها وتحت رقابة شقيقتى التى تحملت هذا العناء الأسبوعى راضية إكرامًا لى.

ولم أشعر بالشماتة فى الغادرة.. وشقيقتى تحدثنى عن ذبول جمالها وانكسار نظرتها.. ومحاولتها إقناع شقيقتى بأنها كانت مغلوبة على أمرها فيما فعلت، وأنها تدفع الثمن غاليًا الآن من لوم الجميع واحتقارهم الصامت لها، ومن تهدم الأحلام السعيدة وانكشافها عن حياة نصف زوجة تختلس من زوجها بضع ساعات من يومه، وتتعرض لمتاعب عديدة من زوجته وابنتيه.

نعم لم أشعر بالشماتة، فيها.. ولا بالعطف عليها.. فجرحى لم يدع لى مجالاً للتفكير فى أمرها، واهتماماتى مركزة الآن فى شئون الطفلة الصغيرة ودروسها.. وملابسها.. وحمامها.. وطعامها وصحتها وتسليتى اليومية هى الجلوس أمام شاشة التليفزيون بعد نوم الصغيرة

ومشاهدة أفلامها وقصص حياة الآخرين فيها والاندماج معها بعض الوقت والاستمتاع باحتساء القهوة والتدخين فى هدوء، وأنا أفكر من حين لآخر فى البحث عن إجابة مثالية لسؤال الطفلة اليومى عن أمها بشرط أن تكون إجابة لا تكذب.. ولا تهز فى نفس الوقت صورة الأم الحنون فى مخيلة طفلتها فتتأثر معنوياتها وتهتز قيمتها حين تكبر.

ومازلت أفكر فى هذا الأمر كل ليلة.. ولم أهتد بعد إلى الإجابة المثالية.. فعسى أن أجدها خلال وقت قريب..

وتنبه من شروده فجأة على صوت أزيز جهاز التليفزيون بعد انتهاء الإرسال.. فتعجب كيف انتهى دون أن يتنبه إليه.. وحاول جاهدًا أن يتذكر ماذا كانت سهرة الليلة.. فلم ينجح فى التذكر ونـهض ببطء، فأدار مؤشر التليفزيون باحثًا عن قناة مازالت تبث إرسالـها فى هذا الوقت الـمتأخر من الليل.. وارتسمت الـخيبة على وجهه حين لـم يجد شيئًا سوى الأزيز على كل القنوات.. فأغلق الجهاز وتثاءب ومضى متثاقلاً إلى غرفة نومه وهو مازال يفكر.. فى الإجابة المحيرة التى يبحث عنها.

كانت تعيش حياتها فى فتور.. لا تشكو التعاسة ولا تعرف خفقة القلب لمن يحب. تخرجت فى الجامعة والتحقت بعمل حكومى مناسب ثم تعرفت على زوجها فى دائرة العمل ورآها فأعجبته وتقدم إليها فلم ترفضه.

هل أحبته؟ لا تستطيع أن تجزم بذلك بعد كل هذه السنين.. هل كرهته؟ مؤكد أنها لم تكرهه، لكنها حملت له مشاعر الألفة ووحدة المصير والمشاركة فى مسئولية الحياة. أما الحب فشىء آخر يضيف إلى كل ذلك "شيئًا زائدًا" لا يعرف كنهه إلا من يحسه!

ولقد كانت تراجع مشاعرها تجاه زوجها من حين إلى آخر لتبحث فيها عن هذا الشىء الزائد.. فتقنعها المراجعة بأنه لم يولد بعد!

وبعد سنوات من العمل فى الهيئة التى تعرفت فيها بزوجها نقلت إلى هيئة حكومية أخرى، وفى هذه الهيئة الجديدة رأته للمرة الأولى رجلاً وسيمًا وسامة الرجال الأقوياء.. تتسم تصرفاته بالجدية والاحترام.

التقى بها فى الصباح عند المصعد بمقر العمل فحياها باحترام وردت تحيته بشعور محايد.. وفى العمل سمعت عنه

كلامًا طيبًا.. وتكرر لقاء الـمصعد فى الصباح، وخلقت رحلته الطويلة إلى الدور الرابع عشر بينهما ألفة كألفة رفاق السفر، فأصبحا يتناقلان أخبار مرض الأبناء ونجاحهم.. ومشاكلهم.. وأخبار العمل خلال لـحظات الانتظار.. ورحلة الصعود ثم يصل الـمصعد إلى مقر العمل، فيخرجان منه ويتجهان إلى الإدارة الـحكومية التى يعملان بـها.. ويواصلان الـحديث إلى أن يفترقـا عنـد نقطة الافـتراق، فتتجه هى إلى الغرفة لأولى فى بداية الـممر حيث يقع مكتبها.. ويواصل هو السير فيه إلى مكتبه فى نـهايته.

صباحًا بعد صباح.. ويومًا بعد يوم وعامًا بعد عام وهما يلتقيان أمام المصعد، ويتشاركان فى رحلة الصعود وتبادل الحديث العابر الذى لا يشى بشىء خاص، وإن عكس ألفة كألفة زملاء العمل الواحد حين تطول بـهم العشرة ويـجمعهم تقارب الميول.. ثم أعير زوجها للعمل بإحدى الدول العربية فسافرت بأسرتـها معه إلى هذه الدولة وعاشت بها أربع سنوات كاملة. هل افتقدت فى غربتها رفيق رحلة الصباح اليومية فى القاهرة؟ لا شىء يؤكد لها ذلك.. فلقد كانت تفتقد كل زملاء العمل وتفتقد أشقاءها.. وجيرانها.. وتطوف بمخيلتها صورهم وذكراهم واحدًا بعد الآخر.. وكان هو يطوف بمخيلتها كغيره من الأهل والأصدقاء والـجيران المقربين، وتذكر له بالود احترامه لـها وروحه الودود تـجاهها، وقد اهتمت بأن تعرف

أنه قد أعير هو الآخر بعد سفرها بعام لدولة عربية أخرى وانتقل إليها، وتمنت له على البعد كل خير فى الحياة.

وانتهت فترة إعارة زوجها وعادت لحياتها الطبيعية فى القاهرة ورجعت إلى مقر عملها فلم تجده فيه.

فلقد انتقل إلى مركزها الرئيسى فى مبنى آخر وانشغلت بمشاغل الحياة الكثيرة.. وبتخرج الأبناء.. وبحثهم عن مستقبلهم وحياتهم الخاصة. وفجأة توفى زوجها بعد أن أوشكت السفينة على بلوغ شاطىء الأمان. واستسلمت للأحزان والأمراض التى تناوبتها بعد رحيل رفيق الحياة واكتشفت أن زوجها كان يمثل فى حياتها وحياة أبنائها الأمان، رغم فتور المشاعر.. والجفاء الصامت.. وفترات الخلاف الطبيعية بينهما.

وتزوج الابن بعد البنت فتجرعت الأم الوحدة فى سكنها حتى الثمالة.. وخلت عليها الشقة التى عاشت فيها شبابها وسنوات عمرها وشهدت مجىء الأبناء.. ومسراتهم وحبوهم على الأرض فى بواكير العمر.. ثم جريهم عليها فى طفولتهم ثم مشاكلهم كفتية فى مرحلة المراهقة.. ثم استواءهم شبابًا وعقولاً تتخاطب وتتفق وتختلف معها ويملأون فراغ حياتها بكل شىء جدير بالاهتمام.

وتخرج إلى العمل فى الصباح وتعود منه بعد ساعات قليلة

فتشترى خلال العودة احتياجاتها البسيطة من الأسواق، ثم تصعد إلى مسكنها الخالى فتبقى فيه وحيدة مكتئبة حتى الصباح! لا شىء يبعث فى ركود حياتها الحرارة سوى زيارات الأبناء.. واتصالاتهم التليفونية.

وفجأة وجدت فى صحيفة الصباح خبرًا أثار اهتمامها، فلقد قرأت خبرًا عن حركة ترقيات للمناصب العليا فى الهيئة التى تعمل بها، فإذا بها تقرأ اسم رفيق رحلة المصعد فى السنوات البعيدة وقد رقى لمنصب أعلى. ترى كم من السنوات مضت منذ رأته لآخر مرة؟ 15 عامًا على الأقل.. تغيرت خلالها الحياة ورحل الزوج وكبر الأبناء وانتقلوا إلى مساكنهم الخاصة، فلماذا إذن يثير هذا الخبر اهتمامها الشديد وهى أرملة وحيدة فى الثانية والخمسين؟

لم تتوقف طويلاً أمام السبب وأرسلت إليه برقية تهنئة بالترقية، ولم تمض ثلاثة أيام حتى تلقت منه برقية شكر واعتذار!.. شكر على التهنئة.. واعتذار عن تأخره فى مواساتها فى رحيل زوجها الذى علم به مؤخرًا.

وبعد أيام أخرى.. دق جرس الباب فى مسكنها عند الأصيل، فغادرت مقعدها الأثير أمام التليفزيون واتجهت إليه وهى تتوقع أن تجد البواب.. أو الزبال وفتحت الباب فإذا بها تجده أمامها!

وقفت مذهولة تنظر إليه فى سمته الوقور وقد زادته السنوات

وسامة وجلالاً.. ووقف هو ينظر إليها فى فستان الحداد الأسود ويتأملها باهتمام، وقبل أن تنطق بأية كلمة قال لها بصوت هامس: يا إلهى كأن مرور السنين لم يغير منك شيئًا! فكادت تفلت منها رغمًا عنها عبارة مماثلة لكنها تمالكت نفسها فى اللحظة الأخيرة.. ورحبت به بابتهاج ودعته لدخول مسكنها فدخل معتذرًا عن مجيئه بغير موعد سابق.

جلس فى صالون الشقة.. وانطلق مخزون السنين من الكلام المكتوم، فتحدثا عن الأبناء ورحلة الحياة وتبادلا الذكريات القديمة: هل تذكرين زميلنا عدنان الجلالى.. لقد طلق زوجته بعد عِشْرة عشرين سنة ووقع فى غرام موظفة صغيرة بمكتبه.

فتجيبه: هل تذكر زميلتنا نفيسة القرموطى؟ لقد مات زوجها منذ سبع سنوات.. وهاجرت إلى أمريكا وراء أولادها.

هل تذكرين.. هل تذكر.. هل تتذكر.. ومضت ساعتان كأنهما لمحة خاطفة.. فتعجبت من سرعة مرور الزمن وهى التى تعانى من ثقل الأوقات وبطئها.. وانصرف مودعًا بالشكر والاحترام وتكررت زياراته لها فى أوقات متباعدة، وفى زيارة منها قدمته لابنها وابنتها فاشترك الجميع فى سمر عائلى لذيذ.. وأصبحت تترقب زياراته القليلة واتصالاته التليفونية المتباعدة فى قلق. وتجدد اهتمامها

بالـحياة واختفت متاعبـها الصحية، وتورد وجهها الشاحب بدماء الـحماس والرغبة فى "الاستمرار" بعد أن كادت تفقد كل رغبة لـها فى الـحياة.

وفى زيارته الـخامسة قال لـها إنه رجل جاد ولا يريد أن يسىء إلى سمعتها كامرأة وحيدة لـهذا فهو يرجوها أن تقبل زواجه منها.. بغير أن تطالبه بطلاق زوجته أم الأبناء التى هجرته منذ عامـين لتقيم مع ابنتها الـمتزوجة فى إحدى الدول العربية، والتى تتهرب من بيت الزوجية بكل وسيلة ممكنة، وتريد أن تقضى ما بقى مـن حياتـها إلى جـوار ابنتها الـمفضلة. فـإذا كان يرفض طلاقها الآن فليس إلا حرصًا على مشاعر أبنائه وبناته وكرامتهم أمام أزواجهم وزوجاتـهم، وقبـل أن تنطـق بشىء غادرها راجـيًا ألا تـجيبه بـرد قبل أن تفكر فى الأمـر طويلاً!

ووجدت نفسها غارقة فى بحر الحيرة.. زواج فى سن الثانية والخمسين ولم يمض سوى عامين على رحيل رفيق الحياة؟ ماذا يقول الأبناء وكيف ستكون استجابتهم للخبر؟

لا لن تعرضهما لأزمات نفسية بسببها.. ولن تكون سببًا فى إحراجهم مع شركاء الحياة.. فلم يعد لها مطمع فى زواج بعد 28 عامًا منه مع رفيق عمرها.. لكنها فى حاجة فقط لهذا الإحساس الغريب

الذى لم تحيه طوال سنوات الزواج والذى تجد فى "اهتمام" الزميل القديم بها وأحاديثه ما يشبعه لديها بلا تبعات.. ولا اضطرابات فى حياة الأبناء.

أنهكها التفكير والتردد.. وضاعف من معاناته توقف الزميل القديم عن الاتصال بها لكيلا يؤثر على قرارها خلال فترة اتخاذ القرار.

واستيقظت من نومها ذات صباح بعد ليلة مسهدة فوجدت نفسها عازفة عن الرغبة فى النهوض من الفراش، واتصلت بعملها معتذرة بمرضها، وعادت للرقاد بلا نوم وعقلها لا يتوقف عن التفكير ورن جرس التليفون أكثر من مرة، فلم تشعر بالرغبة فى الحديث مع أحد ولم ترفع السماعة، وبعد ساعتين فوجئت بجرس الباب يدق بعنف فتدثرت بروب منزلى وفتحته فوجدت أمامها ابنتها الشابة تدخل منزعجة، وهى تروى لها أنها اتصلت بها فى العمل فعلمت بمرضها واتصلت بها فى البيت فلم يجب التليفون.

وطمأنتها أمها.. ودعتها لتناول فنجان من الشاى معها.. وجلست أمامها تحتسى الشاى فى صمت وهى تختلس النظرات إليها حتى أثارت قلقها.

فقالت لها الابنة فجأة: مالك يا ماما.. ماذا يشغلك؟

فهمَّت بأن تصارحها بكل شىء.. وتحدثها عن "الشىء الزائد"

الذى افتقدته فى حياتها مع أبيها، ولاحت لها الفرصة لأن تناله مؤخرًا ولكن بثمن لا تجرؤ على دفعه من مشاعر الأبناء.

فتوقفت الكلمات عاجزة.. وبذلت جهدًا كبيرًا لكى تحاول الابتسام وهى تقول لها: لا شىء ياسميحة.. مجرد حلم غير مريح أفسد علىَّ ليلتى أمس.. فنهضت مكتئبة بعض الشىء هذا الصباح!

فقالت لها ابنتها بعطف: لماذا لا تأتين للإقامة معى يومين لتغيير روتين الحياة؟

وترقبت ردها ورفضها المتكرر لمثل هذه الدعوة بإشفاق ففوجئت بها تنظر إليها طويلاً.. ثم تقول لها:

- ولم لا؟ سيكون تغييرًا مفيدًا بلا شك؟

وابتهجت الابنة بقبولها الدعوة للمرة الأولى منذ زواجها، ونهضت بنشاط لإعداد حقيبة ملابسها وتابعتها أمها بحب وهى تجمع لها أشياءها، وقالت لنفسها كأنها تحاول الاطمئنان إلى سلامة قرارها بالإقامة لدى ابنتها لفترة قصيرة: لا بأس بالفكرة فستكون فرصة طيبة للتفكير بعمق فى كل الأمور..

ومن يدرى فربما تصبح فرصة ثمينة أيضًا لاختبار.. ردود الأفعال؟!

أحس بصدره يضيق فجأة بكل ما فيه، عجز عن الاحتمال. سلم بحاجته إلى الهروب من كل شيء. لكن أين المفر والقيود تحيط به من كل جانب؟ فى العمل يصفونه بالرجل القوى الذى لا ضعف فيه. ويتهمه البعض بلا حياء بأنه لا قلب له، لأنه لا يتسامح مع الضعف البشرى ولا يعترف به، لا يتردد فى إحالة موظف أخطأ أو تراخى أو انحرف إلى التحقيق مهما كانت مبرراته أو ظروفه!

يرفض التوسلات.. ويستنكر عبارات الاسترحام... ويردد عبارته التى حفظها الآخرون عنه وكرهوها: لا تسامح مع الضعف أو الانحراف! حتى رئيس الهيئة قال له ذات يوم بعد مناقشة عاصفة معه: يا سيد حسين أنت رجل مستقيم... ومجد فى عملك لكنك تفتقد المرونة.. فلماذا لا تتساهل بعض الشيء حتى تتجنب المشاكل؟

ـ فغضب حتى احمر وجهه وتمسك بضبط النفس مع رئيسه وسأله:

20

ـ هل ظلمت أحدًا.. أو تجنيت عليه؟

فأجابه رئيسه بضيق: لم تظلم أحدًا.. لكنك تتشدد فيما يتساهل فيه غيرك ولا تقدر ظروف أحد.. فلماذا لا تتألف قلوب الزملاء ببعض التسامح؟

وهمَّ بمغادرة مكتب رئيسه فلاحقه الآخر بكلماته:

ـ غضبت كعادتك.. لكن لا بأس بكلمة تسمعها منى قبل أن تسمعها من غيرى.. أنت ترفض كل الأعذار العائلية لمرؤوسيك.. ولا تقبل تهاون أحد بسبب ظروفه الشخصية مهما كانت مؤلمة أو ضاغطة.. وهذا سليم من الناحية الإدارية.. ولكن أين الاعتبارات الإنسانية أيضًا عند الحكم على الناس؟ ألا تواجهك أحيانًا مشاكل عائلية وإنسانية تؤثر على عملك؟ فأجابه بهدوء: أنا لا أسمح لاعتباراتى الشخصية أو العائلية بأن تؤثر على عملى ولا أعتذر بها عن أى تقصير.

فقال له رئيسه: أعترف لك بذلك.. وأعترف أيضًا بأنك تبدو أمامى كالصخر الذى لا يتأثر بشىء فى عمله.. لكن لماذا تطالب الآخرين دائمًا بأن يكونوا مثلك.. أليست لكل إنسان ظروفه؟.

وانتهت المناقشة بينهما كالعادة بلا نتيجة حاسمة. وعاد هو إلى مكتبه فأضافت كلمات رئيس الهيئة إلى معاناته همومًا جديدة.

أنت رجل قوى، لكن لماذا تطالب الآخرين بأن يكونوا مثلك أنت بلا ضعف لكن الآخرين لهم ضعفهم فلماذا لا تقدر ظروفهم.. كلمات.. كلمات يبررون بها الإهمال والانحراف.. ويصورونه بها كأنه إنسان بلا هموم.

فأين هو الإنسان الذى خلت حياته من الهموم والأحزان؟

مضى يوم العمل ثقيلاً بطيئًا.. ونفس كعادته عن مشاعره المكبوتة بالاستغراق فى عمله، ومن حين إلى آخر راح يتطلع إلى تليفونه الخاص الذى لا يعرف رقمه إلا الخلصاء.. وينتظر رنينه فيظل التليفون صامتًا صمت القبور وتزداد غصته وإحساسه بالقهر المكتوم.. ومرات بعد مرات فكر فى أن يتصل بمن ينتظر مجئ الاتصال منه.. ومد يده إلى التليفون بالفعل وأدار الرقم ثم وضع السماعة قبل أن يجيبه أحد.

بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر.. وانتهت ساعات العمل الرسمية لكنه لم تبد عليه أية نية لمغادرة المكتب، وبعد قليل طرقت الباب سكرتيرته تستأذن فى الانصراف فأشار لها بيده موافقًا وهو يقول لنفسه: مخلصة وأمينة ونشيطة.. لكن زوجها قاس كالحجر.. ويثير فى وجهها زوبعة إذا عاد من عمله يومًا ولم يجدها.. ومرات جاءت إلى المكتب وآثار اللكمات فى وجهها.. وشكت له من متاعبها معه فسمح لها بالانصراف قبله.

ويقولون بعد ذلك إنه لا قلب له ولا يراعى الاعتبارات الإنسانية!

واصل هو العمل بلا كلل ثم طرق الباب بعد ساعة أخرى مدير مكتبه متسائلاً عما إذا كان يريد أن يتناول الغداء فى العمل كما يفعل معظم الأيام، فأحس من كلماته بأنه يتلمس الطريق للإفضاء له بشىء

فدعاه للاقتراب وسأله عن حاله.. وتشجع الآخر فحكى له أن زوجته مازالت تعانى آلام العمود الفقرى وأنه سيصطحبها بعد ساعتين إلى موعد العلاج الطبيعى، ففهم "الإشارة" وأذن له فى الانصراف قبله ليستطيع اللحاق بموعده.

وانصرف الآخر شاكرًا.. وبقى وحيدًا فى مكتبه.. يعد خطة الإدارة للعام الجديد.. ويسترق النظر من حين إلى آخر إلى التليفون الصامت حتى بلغت الساعة الخامسة مساء.. ودخل ساعى المكتب يسأل.. هل يحضر له شيئًا للغداء؟

فنظر إليه صامتًا لحظات ثم حزم أمره فجأة وقال له:

ـ شكرًا سأنصرف الآن فأبلغ السائق ليستعد ونهض متثاقلاً فارتدى الجاكت الموضوع على المقعد المجاور.. وأحكم رباط عنقه.. وغادر المكتب يسبقه الساعى حاملاً حقيبته.

وفى السيارة جلس صامتًا يرقب طريقه اليومى إلى بيته فى مصر الجديدة، وهو غارق فى أفكاره ثم لمعت فى خاطره فكرة طارئة فقال لسائقه:

ـ عد ياعم مصطفى.. واتجه إلى المعادى.. وأذعن السائق للأمر وعاد بالسيارة إلى الاتجاه الآخر، ومضى مسرعًا فى طريقه.

منذ أسابيع وهو يقرر كل يوم أن يذهب إلى مسكن شقيقه الذى يعمل فى الـخارج ليطمئن عليه كما أوصاه بذلك، ولكى يدفع عنه الإيـجار الـمتأخر وفواتير الكهرباء، لكن مشاغل العمل وهموم الـحياة تصرفه عن أداء هذه المهمة حتى مضت شهور لـم يقترب فيها من المسكن الخالى وكلف سائقه بالقيام بالمهمة نيابة عنه.

فى الطريق أمر سائقه بأن يتوقف ليشترى له بعض الشطائر، ثم عادت السيارة تشق طريقها حتى بلغت بيت شقيقه.

غادرها فنهض البواب يحييه بحرارة ورد تحيته بألفة وتناول البواب الحقيبة ولفافة الشطائر من السائق وتقدمه إلى المصعد. فتح باب مسكن شقيقه وتسلم الحقيبة والشطائر من البواب شاكرًا ثم تقدم فى الشقة المظلمة وأضاء نور الصالة وفتح باب الشرفة فرأى أرضية الشرفة مغطاة بالتراب فأسرع بإغلاق الباب الزجاجى خشية أن تتسرب الأتربة للداخل. تفقد الحجرات ببطء وحرص، فوجد كل شىء على حاله، فعاد إلى البهو وخلع جاكتته وجلس على مقعده الأثير الذى يجلس فيه كلما جاء لزيارة شقيقه وفتح لفافة الشطائر وتناولها بلا حماس.. ثم دخل المطبخ وبحث عن علب الشاى والسكر حتى وجدها وصنع لنفسه كوبًا من الشاى.. عاد بالكوب إلى مقعده واحتساه ببطء وهو شارد.. ثم خلع حذاءه وجوربه واتجه إلى الحمام..

وعاد بعد لحظات فأدى صلاة العصر وبقى جالسًا على سجادة الصالون ورفع كفيه متهيئًا لدعاء ما بعد الصلاة كعادته، ففوجئ بنفسه ينخرط فجأة فى بكاء مرير وشجعه خلو المكان على الاسترسال ولم يحاول كبح دموعه وأطلق لها العنان، فتحول البكاء بعد قليل إلى عويل مسموع وخلال شهقاته وجد لسانه ينطلق رغمًا عنه بصوت مسموع.

وحيد فى الدنيا بلا رفيق ولا أنيس.. وشقيقى الوحيد الذى أرتاح إليه وأفضفض معه بهمومى بعيد عنى فى الغربة منذ عامين.. أيرضيك هذا؟ وشقيقتى الصغرى قاطعتنى لأنى وقفت ضد رغبة زوجها فى الاستيلاء على ميراثها فرضخت لأمره رغم تسليمها بإخلاصى وحرصى على مصلحتها، وباعتنى بالثمن الرخيص وحرمت بيتى عليها وتليفونى على لسانها.. وحتى فى الأعياد تبخل علىّ بكلمة تهنئه.. وفشلت محاولاتى لاسترضاء زوجها فأبى إلا التسليم برغبته أو استمرار المقاطعة..

فتحملت الجفاء حتى لا يبدد مالها فى مغامراته النسائية.. وأيدتنى شقيقتى الكبرى فى ذلك. ورغم ذلك قاطعتنى الصغرى التى تحملت مسئولية تربيتها بعد وفاة أبوينا، وردت إلىَّ هدية ياميش رمضان التى تعودت إهداءها لها كل سنة فهل يرضيك هذا؟

وزوجى التى تحيل حياتى إلى جحيم منذ تزوجنا من 25 سنة وأتحمل صابرًا عشرتها حرصًا على الولدين، فعانيا معى من عصبيتها المريضة الكثير والكثير حتى كانا لا يخفيان عنى تعاطفهما وإشفاقهما، ومع ذلك فقد هاجر ابنى الأكبر إلى أميركا بعد تخرجه رغمًا عن إرادتى.. ورفض توسلاتى إليه بالبقاء معى ليعوضنى عن غربتى النفسية مع أمه.. وتلاه الآخر بعد عام فأدمى قلبى حين سافر لزيارة شقيقه وبقى هناك رافضًا العودة لاستكمال دراسته الجامعية.. ورافضًا توسلاتى وبكائى له فى التليفون موهما إياى أنه سيستكمل دراسته هناك.. فهل يرضيك هذا؟.

والعمر الذى تسرب من بين يدى حتى بلغت الخمسين ولم أهنأ براحة القلب يومًا، وبيتى الصامت الذى لا يدور فيه حديث بينى وبين زوجتى إلا خطفا وباقتضاب عن مطالب الحياة ومصروف البيت.. ورغم المعاناة ترفض كل محاولاتى لأن نبدأ من جديد ونتجاوز عما مضى، ونأنس بصحبة هادئة تخفف عنا وحدتنا بعد هجرة الأبناء.. وعند الخلاف لا ترعى لى حرمة.. ولا تتذكر تضحيتى بسعادتى للحفاظ على بيتها رغم المغريات العديدة.. وتهجرنى عند أى بادرة خلاف إلى غرفة الأبناء بالشهور، ويحل الجفاء والصمت بيننا دون أن تبدى اعتذارًا أو تقترب منى.. أيرضيك هذا؟

وقسوة الحياة علىَّ حين وجد القلب راحته أخيرًا بعد العناء وجمعتنى الأقدار من جديد مع من أحببتها فى سنوات الجامعة وتمنيتها كزوجة فحرمتنى الحياة منها.. ورفضنى أبوها لضعف إمكانياتى.. وحرمها من الخروج من البيت شهورًا حتى أرغمها على الزواج من الزوج الجاهز الذى لم تحبه يومًا.

ثم حملتها الأقدار إلىّ بعد أكثر من عشرين سنة لأنهى لها بعض مصالحها فى الهيئة، فوجدتها أرملة لم تفقد جمالها ولم تفقد تأثيرها علىّ، وصحا العملاق الصامت القديم فى قلبى، وراودت نفسى طويلاً قبل أن أسلم لها بأنى مازلت أريدها.. ولم يعد لى إلا أمل واحد هو أن أحيا بضع سنوات من سعادة القلب معها.. واعترفت هى لى بأنها لم تنسنى يومًا.. وبدأنا نرتب لتصحيح الخطأ القديم.. وأعلنتها أننى لن أطلق زوجتى حفاظًا على الشكل العام ومراعاة لشعور الولدين اللذين لم يرحما ضعفى.. وحددنا موعدًا لمفاتحة شقيقها وأسرتها.. فتأتينى فى اللحظة الأخيرة تطالبنى بنسيان كل شىء والامتناع عن الاتصال بها لأنها تأكدت من أنها ستواجه مشاكل عاتية مع أهل زوجها الذين يحتفظون بميراث أبنائها لديهم.. وتفشل كل محاولاتى معها لإقناعها بأننى سأتولى عنها كل شىء ولن أفرط فى حقوق أبنائها..

فلا تستجيب لرغبتى وتوسلاتى.. وتبتعد عنى منذ أسابيع بلا كلمة واحدة أو أمل.. فهل يرضيك هذا؟

حتى ابنى الكبير الذى يعيش فى أميركا منذ عامين.. أكتب إليه لأجس نبضه تـجاه مشروع زواجى فيجيبنى بكلمات قاتلـة يذكرنى فيـها بأن العمر قد مضى ولـم تبق فيه بقيـة لطلب السعادة، "وينصحنى" بأن أجنب أمه الشقاء والتعاسة فى أخريات أيامها وبأن أواصل تضحياتى إلى النهاية.. أيرضيك هذا؟

واستسلم للبكاء واجترار الأحزان طويلاً حتى ارتوى، ثم تلفت حوله فجأة كأنما يخشى أن يراه أحد وتذكر أنه وحيد فى المسكن الخالى، فاسترد اطمئنانه..، ونهض ببطء واتجه إلى الحمام فغسل وجهه وأزال آثار دموعه.. ثم سوى شعره.. وعاد إلى البهو فرفع الكوب الفارغ وغسله فى المطبخ، وارتدى جوربه وحذاءه وجاكتته وأصلح هندامه.. وأغلق باب الشرفة.. وحمل حقيبته وغادر الشقة وهو يحس بأنه قد أزاح عن صدره عبئًا ثقيلاً.

وغادر باب العمارة فنهض البواب محييا.. فكرر عليه توصيته بالاتصال به تليفونيًا كلما جاءت فاتورة الكهرباء أو الغاز ونفحه مبلغًا صغيرًا.. ثم اتجه إلى السيارة التى فتح سائقها الباب له باحترام فدخلها واسترخى فى مقعدها الخلفى.. وقال للسائق: على البيت يا عم مصطفى.

ومضت السيارة فى طريقها الـمرسوم وهو يرقب الطريق صامتًا

وملامـحه تسترد طبيعتها الـحازمة شيئًا فشيئًا.. وقبل أن تصل السيارة إلى بيته.. كان قد استراح إلى قراره الـجديد بأن يذهب إلى مسكن شقيقه الـخالى مرة كل أسبوع على الأقل!

كتب للمؤلف

1- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
2- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة 2004
3- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
4- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2001
5- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
6- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
7- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
8- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
9- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
10- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2001
11- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
12- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
13- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000

14- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2000
15- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
16- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2000
17- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
18- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
19- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
20- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2000
21- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية 2000
22- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة 2004
23- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
24- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 1997
25- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
26- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية 2001
27- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 1999
28- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001
29- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001

* كتب للمؤلف من إصدارات "الدار المصرية اللبنانية"

30- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2003
31- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2003
32- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2002
33- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
34- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة 2001
35- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2001
36- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
37- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2003
38- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرباعة 2003
39- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
40- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2002
41- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001
42- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2002
43- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003

44- هو وهى والآخرون	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
45- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003
46- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
47- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
48- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
49- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2004
50- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
51- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
52- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
53- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
54- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
55- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006

المحتويات